الفصل الثاني

obeikandl.com

الفصل الثانى

الإطار النظـرى للبحـث

أولا : المعنى اللغوى والاصطلاحى للاغتراب .

ثانيا : الإطار الفلسفي والاجتماعي والنفسي والإسلامي للاغتراب .

ثالثا : الإطار النظرى للصحـة النفسـية ورؤية الإسلام اليها

الفصل الثاني

الإطار النظـرى للبحـــث

أولا : المعني اللغوى والاصطلاحي للاغتراب

(أ) **الاغتراب فى اللغة العربيـة :**

وردت كلمة الاغتراب فى معاجمنا العربية بمعان متقاربة،وقد فصلها معجم لسان العرب،حيث يشير إلى أن الاغتراب والتغريب : **النزوح عن الوطن** ، ورجل غريب عن وطنه ، أى بعيد عنه ،والجمع غرباء ، والأنثى غريبة .

وفى الحديث أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلنم - سئل عن الغرباء فقال الذين يحيون ماأمات الناس من سنتي .

وفى حديث آخر " إن الاسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء "(١) ؛ أى أنه كان في أول أمره كالغريب الوحيد الذى لاأهل عنده لقلة المسلمين يومئذ ، وسيعود غريبا كما كان ، أى يقل المسلمون فى آخر الزمان فيصيرون كالغرباء ؛أى الجنة لأولئك المسلمين الذين كانوا في أول الاسلام ويكونون في آخره ، وإنما خصهم بها لصبرهم على أذى الكفار أولا وآخرا ولزومهم دين الإسلام .

واغترب الرجل نكح في الغرائب ، وتزوج إلى غير أقاربه ، وفي الحديث اغتربوا ولاتضووا ؛ أى لايتزوج الرجل القرابة القريبة فيجيء ولده ضاويا ؛ أى ضعيفا .

والاغتراب افتعال من الغربة ، أراد تزوجوا إلى الغرائب من النساء غير الأقارب فإنه أنجب للأولاد " (ابن منظور ، د.ت.، ص ٣٢٢٥) .

وهكذا يتبين مما سبق أن معاني الاغتراب في اللغة العربية انحصرت في البعد المكاني ، أو الزواج في غير الأقارب ، وهذا المعنى نفسه الـــذى جاء فى المعاجـــــم

---

(١) أخرجه مسلم ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

الأخرى ، (١) وهي بهذه المعاني لم تقترب كثيرا من معنى الاغتراب لدى المهتمين بدراسة هذه الظاهرة ، ولكي تكتمل الفائدة من الناحية اللغوية ، فسوف نستعين باللغات الأجنبية حتى تكتمل الصورة .

(ب) **الاغتراب في اللغة الأجنبية :**

١ - **الاغتراب عند(شاخت** (Schacht

يؤصل شاخت المعنى الاشتقاقي للاغتراب وذلك بعودته الى أصوله اللغوية اللاتينية فيذكر أنه مشتق من الاسم اللاتيني "Alienatio" المشتق بدوره من الفعل Alienare بمعنى نقل أو إبعاد شيء ما ليصبح غريبا عن صاحبه . وهذا الفعل مشتق بدوره من كلمة لاتينية أخرى هي Alienus بمعنى التعلق أو الانتماء الى آخر ، وهذه الكلمة Alius بمعنى آخر Other أو الآخر Another (شاخت ، ١٩٧٠ ، ص ص ٩ ، ١٠) .

٢ - **الاغتراب عند(أرون** Aron)

يرى " أرون " أن الاغتراب Alienation في اللغة الانجليزية والفرنسية ترجمة لثلاث كلمات ألمانية :

- Verausserung وتعنى قانوني ، كعقود البيع والشراء والصفقات وما إلى ذلك .
- Entaussernung وتشير إلى التخارج Externalization بمعنى أن العمل يصبح غريبا عن صاحبه ، وشيئا آخر غير منتم إلى صاحبه .

---

(١) جاء في (مختار الصحاح) " اغترب فلان ، إذا تزوج إلى غير الأقارب وفى الحديث " اغتربوا ولاتضووا " (محمد بن أبى بكر الرازى ، ١٩٨٧ ، ص ١٩٧) .
وفى (المنجد فى اللغة) " التغريب النفي عن الوطن ، اغترب نزح عن الوطن ، وتزوج فى الأقارب (دار المشرق العربي ، ١٩٨٠ ، ص ٥٤٧) .
أما فى (المعجم الوسيط) فيقول " اغترب فلان تزوج في غير الأقارب وفي الحديث الشريف " اغتربوا ولاتضووا " . وتغرب ، نزح عن الوطن . (مجمع اللغة العربية ، د.ت . ، ص ٦٤٧)

- Entfremdang وتفيد معنى الغربة .

يتبين من هذا الاستخدام اللغوى أن الاغتراب يفيد الانفصال كما يعني عدم الانتماء ، وأن المغترب غير منتم ، وأن الغربة هي الشعور الذى يكابده المغترب ويعانيه (محمد ابراهيم عيد ، ١٩٨٧ ، ص ص ٢٥ ، ٢٦) .

٣ - الاغتراب في الموسوعة البريطانية الجديدة

تعرف الاغتراب بأنه " مفهوم ينم عن شعور بالانفصال عن النفس ويشتمل على المعاني التي تؤدى الى العزلة الاجتماعية والعجز واللامعنى واللامعيارية . (١٩٧٤ ،ص ٥٧٤) .

(جـ) المعنى الاصطلاحي للاغتراب :

يستخدم الباحثون المهتمون مفهوم " الاغتراب بأنه تعبير عما يستشعره الإنسان الحديث من غربة ، ومايحسه من زيف الحياة وعقمها ، ومايلحظه على علاقات الأفراد بعضهم ببعض من سطحية واستغلال ولا إنسانية إلى آخر هذه المظاهر من الفساد والتفسخ الاجتماعي، التي تستشرى فى عالمنا الحديث، بصورة تكاد أن تهدد وجود الإنسان وصحته النفسية " (محمود رجب ، ١٩٨٨ ، ص ٨) .

في حين نجد (أحمد خيرى حافظ ، ١٩٨٠) يعرف الاغتراب بأنه " وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته ، والبيئة المحيطة به ، والمحيطة له ، وبصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء ، والسخط والقلق ، ومايصاحب ذلك من سلوك إيجابي أو الشعور بفقدان المعنى واللامبالاة ، ومركزية الذات والانعزال الاجتماعي ومايصاحبه من أعراض " اكلينيكية ".

وقد حدد مظاهر الاغتراب في ثمانية أبعاد هي : (فقدان المعنى ، ومركزية الذات ، واللامبالاة ، والانعزال الاجتماعي ، وعدم الانتماء ، والعدوانية ، والقلق ، والسخط) . (ص ١١٤) .

أما سعد المغربي فإن تعريفه للاغتراب نابع من زاوية الصحة النفسية ، " فهو يرى أن الطب العقلي يكاد يطابق بين مفهوم الاغتراب ، ومفهوم الذهان ، في أى شكل من

أشكاله ، باعتباره حالة يعجز فيها الانسان المغترب ، أو الذهاني عن ممارسة السلوك السوى العادى ، والإسهامات العادية في حياة الجماعة ؛ الأمر الذى يجعله غريبا عن نفسه وعن الجماعة ، وفي حاجة إلى رعايتها ، ويلخص تعريفه للاغتراب من خلال النقاط التالية :

١ - فقدان أو افتقاد علاقة وبخاصة عندما تكون العلاقة متوقعة .
٢ - حالة يظهر فيها الأشخاص والمواقف المألوفة للفرد كموضوعات غريبة عليه .
٣ - حالة يشعر فيها الفرد بأن ذاته غير حقيقية .
٤ - حالة يفقد فيها الفرد الوعي بالعمليات النفسية الداخلية (أحمد عمر ، ١٩٨٩ ، ص ١٣) .

وعلى الرغم من تباين الرأى واختلافه ، وأسلوب المعالجة لمصطلح الاغتراب ، فإن كل المحاولات التى بذلت حتى الآن تشير كلها إلى دخول عناصر معينة فى مفهوم الاغتراب مثل الانسلاخ عن المجتمع والعزلة أو الانعزال عن المجتمع " أو نوع من العلاقات غير الكاملة التى تبدو عندها المواقف والأشخاص " (هوراس Horace ، ١٩٦٤ ، ص ٢٢) .

وتشير الموسوعة البريطانية إلى عدة معاني تصاحب الاغتراب وهي :

١ - العجز (١) : وهو إحساس الفرد بأن مصيره متروك لغيره ، وتحدده مصادر خارجية .
٢ - اللامعنى (٢) : ويقصد به عدم الفهم الكامل ، أو عدم وجود معنى ثابت فى أى مجال من مجالات العمل ، وأن الحياة ليس لها معنى أو هدف .
٣ - اللامعيارية (٣) : ويقصد بها عدم الالتزام الكامل بالتقاليد والضوابط الاجتماعية .

---

(١) Powerlessness
(٢) Meaninglessness
(٣) Normallessness

٤ - **العزلة الاجتماعية** : (١) وهى الإحساس بالعزلة والوحدة في العلاقات الاجتماعية .

٥ - **الاغتراب الثقافي** : (٢) ويعني شعور الفرد بأن القيم الموجودة في المجتمع غريبة عليه مثلما يحدث في تمرد الطلاب أو التمرد الفكرى ضد المؤسسات التقليدية .

٦ - **الاغتراب الذاتي** : (٣) وهو إحساس الفرد بأنه غريب عن نفسه ، وليس متوافقا معها "

(وليم بنتون William Benton ، ١٩٧٤ ، ص ٥٧)

ثانيا : الإطار الفلسفي والاجتماعي والنفسي والإسلامي للاغتراب

١ - الإطار الفلسفي للاغتراب :

يعد الاغتراب ظاهرة إنسانية وجدت في مختلف أنماط الحياة الاجتماعية، وفي كل الثقافات التي كان للإنسان دور كبير في بنائها ؛ فحيث يكون الإنسان يوجد الاغتراب ، سواء الإنسان القديم أو الحديث ، ولكن ظاهرة الاغتراب زادت حدة في هذا العصر نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والتغيرات الجذرية التي يشهدها العالم المعاصر .

وكثير من الكتابات الفلسفية التى تناولت مفهوم الاغتراب فسرته في ضوء فلسفتها ونظرتها ، مما أدى إلى اختلاف في الرؤية إلى مفهوم الاغتراب والأسباب الناشئة عنه ، " وذلك حين يعرضون بالتحليل والتفسير لظواهر ومشكلات مثل : الفجوة بين الأجيال ، أو الوجود الأصيل والوجود الزائف غير الأصيل ، أو الحرية والاستعباد ، أو الإيمان والإلحاد ، أو الاستعمار والتحرر من الاستعمار .

وبدأنا نرى نقاد الأدب والفن يستخدمون كلمة " الاغتراب " للتعبير عما يستشعره الإنسان الحديث من غربة كونية ، ومايحسه من زيف الحياة وعقمها ، ومايلحظه على علاقات

---

(١) Social Isolation

(٢) Cultural Estarngement

(٣) Self-estrangement

الأفراد بعضهم ببعض من سطحية واستغلال ولا إنسانية ، إلى آخر هذه المظاهر من الفساد والتفسخ الاجتماعي التى تستشرى فى عالمنا الحديث ، بصورة تكاد تهدد وجود الإنسان وصحته النفسية " (محمود رجب ، ١٩٨٨ ، ص ص ٥ ، ٦) .

ولعل مصطلح " الاغتراب " أن يكون من بين جميع مصطلحات الفلسفة المعاصرة أكثرها تجسيدا لهذه الحقيقة الخاصة بنشأة المصطلحات وتطورها وانتشارها . فمن الصعب علينا فهم دلالته حق الفهم بمعزل عـن المشكلات الإنسانية والظروف التاريخية التى مرت بعصور من استخدموه مـن مفكرين وفلاسفة . وصحيح أن التجارب والأحوال التى ينشأ فى ظلها الاغتراب غالبا مايوصف به عصرنا الحديث ،غير أن هذا لايحجب أن مثل هذه التجارب والأحوال كانت موجودة قبل العصر الحديث ، والتي يمكن أن نعرض لهذه الأفكار التي تناولت الاغتراب وتتمثل في التالي :

أ - <u>الاغتراب عند فلاسفة اليونان والعصور الوسطى</u> :

اهتم الفكر اليوناني بمصطلح الاغتراب ، حيث تزخر الفلسفة اليونانية بمعاني التمرد الفكرى والاغتراب السياسي ، وحين جاء (سقراط ٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م) . وبدأ يشك فى كل شيء ، كان ذلك إيذانا بتيار فلسفي يدعم التغيير ، ويقوم على الفردية والعلمانية. وقد رأى المحافظون فى "سقراط" وثيقة إدانة حية للنظام الاجتماعي السائد آنذاك ، فقد اغترب عن ذلك النظام .

كما تعد محاورات (إفلاطون ٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) محـاولات لإشاعـة جـو من التأمل الناقد ، والبحث عن الحقيقة على أساس أن الأصل في الاغتراب جهل الانسان بحقيقة وجوده الذاتي .

ويستطيع المتأمل لنظرية " المثل " الإفلاطونية أن يلمح في ثناياها جذور المفهوم الديني للاغتراب باعتباره انفصالا عن الله بفعل السقوط .

فلقد كان للنفس - في رأى "إفلاطون" - حياة قبل الحياة هي حياتها فى صحبة الآلهة في عالم المثل ؛ لكنها ارتكبت إثما فسقطت من عالم المثل إلى عالم البدن ؛ أى أن النفس اغتربت عن الالهة حين سقطت في الخطيئة " (نبيل اسكندر ، ١٩٨٨ ،ص ١٨).

ثم جاء (أرسطو ٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) ليكشف أن الاستغلال للثروات هو جوهر الاغتراب ، عندما ينظر الناس إلى النقود على أنها غاية أيضا ، ويتحول عن طبيعتها باعتبارها وسيلة لإشباع الحاجات الطبيعية فتضطرب الحياة الاجتماعية ، وتصبح من المستحيل وقد تحولت الوسائل الى غايات ، وهنا يشعر الإنسان بالاغتراب " (أحمد عمر ،١٩٨٩ ، ص ص ٩ ، ١٠) .

أما اللاهوتيون فقد استخدموا مصطلح الاغتراب للدلالة على معان متعددة منها :

المعنى الأول : ويمثل مفهوم الاغتراب فى اللاهوت اليهودى والمسيحي والذى يعني انفصال الانسان عن الله ، وهناك نصوص كثيرة في الكتاب المقدس تعبر عن هذا المعنى ، نكتفي بذكر مثالين جاءا في العهد القديم من خلال النصين التاليين :

النص الأول : " جاء في العهد القديم : قال فرعون ليعقوب " كم هي سنين حياتك ؟

فقال يعقوب : أيام سنى غربتى مائة وثلاثون سنة .

النص الثاني : " جاء في العهد الجديد قول بطرس : أطلب اليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية ويقول : " فسيروا زمان غربتكم أى حياتكم بخوف أى أن حياة الإنسان على الأرض هي حياة اغتراب عن الله " .

المعنى الثاني : اغتراب الإنسان عن جسده باعتباره عائقا عن الله ؛ لأن الروح ضد الجسد ، ويصرخ بولس قائلا " ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت " .

المعنى الثالث : انفصال الإنسان عن الناس الآخرين .

المعنى الرابع : الاغتراب عن التنظيمات والمنظمات الدنيوية الزائلة التى تخرج عن نطاق المؤسسات الروحية على أساس أن الالتصاق بالعالم الزائف هو انفصال عن الله " . (نبيل اسكندر ، ١٩٨٨ ، ص ص ٢٤ - ٣٥) .

ب - الفلاسفة المحدثون والاغتراب

١ - نظرة فلاسفة العقد الاجتماعي للاغتراب :

يرى أصحاب هذه النظرية أن الاغتراب جاء نتيجة لتخلي الأفراد وتنازلهم على نحو طوعي واختيارى عما يمتلكونه من حقوق طبيعية ، والتى كان الإنسان يتمتع بها في الحالة الطبيعية ، وذلك من أجل مصلحته وأمنه .

" وكان الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو ١٧١٢ - ١٧٧٨) واحدا من أهم الفلاسفة الذين تناولوا الاغتراب بمعناه القانوني في إطار نظريته فى العقد الاجتماعي ، وبمعناه النفسي الاجتماعي في إطار نقده للحضارة تناولا كان على قدر غير قليل من الصدق والعمق .

وقد سبقه في الحديث عن الاغتراب من زاوية العقد الاجتماعي (توماس هوبز ، ١٥٨٨ - ١٦٧٩) و (جون لوك ١٦٣٢ - ١٧٠٤) اللذان يتفقان على أن فعل التخلي عن الحقوق الطبيعية وتسليمها الى المجتمع على أنه فعل إرادى حر ، وبمثابة تضحية تتم عن طيب خاطر ، وبذلك يكون الاغتراب بهذا المعنى أمرا إيجابيا مقبولا إذ يعد شرطا ضروريا لخروج الإنسان من حالة الطبيعة إلى الحالة الاجتماعية ، ويمكن بالتالي قيام المجتمع المدني السياسي .

أما " روسو " فهو يستعمل صراحة الكلمة الفرنسية Aliénation اغتراب لتسمية تلك الفكرة التي كانت عند (هوبز ولوك) ، وإن كانت أى الفكرة قد بلغت على يديه درجة من النضج استطاع معها أن يدرك ليس فقط جانبها الإيجابي ، بل وأيضا جانبها السلبي حيث يرى أن الاغتراب :

" معناه التسليم أو البيع ؛ فالإنسان الذى يجعل من نفسه عبدا لآخر إنسان لايسلم نفسه ، وانما هو بالأحرى يبيع نفسه من أجل بقائه على الأقل " (محمود رجب ، ١٩٨٨ ، ص ص ٤٧ - ٥٨) .

٢ - النظرة الهيجيلية للاغتراب :

يعد " هيجل " أول مفكر يستخدم في مؤلفاته كلها تقريبا مصطلح الاغتراب على نحو منهجي مفصل ، وجعل له أهمية فلسفية ، إذ يراه مفهوما وجوديا " ميتافيزيقيا " وجزءا من طبيعة الانسان ، وهو يتضمن في معناه نوعا من ضعف الروابط والصلات بين الإنسان كموضوع وبينه كذات باحثة عن وجودها ساعية الى الوعي بنفسها .

وقد استخدم " هيجل " الاغتراب بمعنيين : الانفصال والتسليم ؛ فالانفصال يعني فقدان البنية الاجتماعية ، ويعبر عن توافق الفرد في المجتمع بمختلف متغيرات بيئته .

ويفترض " هيجل " وجود التطابق الفورى في حالته السوية في المرحلة التي يسميها العالم الأخلاقي للتطور الإنساني . وإذا ماأراد الإنسان التطابق في بيئته فلابد أن يتخلى عن ذاته ، وهنا يتحقق معنى التسليم ، أى تخلي الفرد عن خصوصياته ". (ريتشارد شاخت ، ١٩٨٠ ، ص ٩٢) .

ولهذا فإن الاغتراب عند " هيجل " حين لاتستطيع الذات الإنسانية التعبير عن نفسها ، وبهذا يصير الإنسان في حالة حرب مع نفسه ، وعليه أن يجاهد في إدراك الوجود المثالي في صراع حتمي وقاس من أجل معرفة المطلق وإدراكه ، ومن ثم يعتبر تاريخ الانسان عملية " دياليكتيكية " يتقدم فيها مرحلة مرحلة ، محاولا أن يسيطرعلى نفسه وعلى القوى الثقافية حتى ينجو من الاغتراب .

ويرى " هيجل " أن الدين مفتاح لحل التناقض المتأصل في الطبيعة الإنسانية المزدوجة " ولكنه سرعان مايقع في التناقض ، فرغم أنه آمن بدور الدين في التغلب على الاغتراب إلا أنه يقول فى موضع آخر " إن الايمان نوع من الهروب ، وبالتالي هو نوع من

الاغتراب . وهذه النظرة أقرب شيء إلى نظرة " ماركس " إلى الدين، حيث يتخذ من طبيعة الذات الداخلية وحقيقتها الجوهرية موضوعا له ، وهي ذات تتميز بأنها تمتلك حقيقتها الواقعية في صورة مغتربة " (محمود رجب ، ١٩٨٨ ، ص ١٧٠) .

هذا وقد تحددت الأبعاد الأساسية للاغتراب عند " هيجل " في بعدين أساسيين هما : الضرورة (١) والحرية (٢) ، باعتبارهما يؤلفان معا مايمكن تسميته بالحركة الجدلية .

" فالضرورة تعني عند " هيجل " الاعتماد على الطبيعة ، ورضوخ الإنسان لما تفرضه عليه من حدود . أما الحرية فيقصد بها امتلاك الإنسان لذاته امتلاكا تاما ، أو كما قال " هيجل " : أن يكون الإنسان واحدا مع نفسه .

أما الاغتراب فعلى النقيض من الحرية يقصد به انفصال الإنسان عن ذاته وأفعاله والآخرين ، انفصالا تبدو معه هذه الأمور كلها وكأنها غريبة عنه وعدو له ؛ أى أن يكون خارج نفسه ، وقد يقصد به أيضا عدم امتلاك الإنسان لذاته وضياعها واستلابها على نحو يؤدى إلى الوقوع في العبودية بأصنافها المختلفة " (السيد شتا ، ١٩٨٤ ، ص ٣٧) .

وبناء على ذلك فالاغتراب كما يرى " هيجل " خاصية وجودية، أو حقيقة وجودية (٣) متأصلة في طبيعة الوجود الانساني في العالم ؛ حيث كان هناك انفصال بين الإنسان كفاعل (٤) خلاق يبحث عن هويته وتحقيق ذاته ، من حيث هو موضوع وكيان يتأثر بالآخرين لدرجة أن أعماله الإبداعية (من فنون ولغات وعلوم الى آخره) تقف خارجة كأشياء غريبة عما هو ضرورى وسابق أى العقل الوعي الانساني ." (تحية عبد العال ،١٩٨٩ ،ص ٢٩)

وبعد " هيجل " بدأت تظهر النظرة الأحادية إلى مصطلح الاغتراب ، أى التركيز على معنى واحد ، هو المعنى السلبي ، فغدونا لانرى المصطلح إلا مقترنا في أغلب

---

(١) Necessity
(٢) Freedom
(٣) Ontological fact
(٤) Subject

الأحوال بكل مايهدد وجود الإنسان وحريته ، وهذا يعنى أن مصطلح الاغتراب قد أخذ يفقد ماكان يتميز به عند " هيجل " خاصة من ازدواج في المعني (محمود رجب ، ١٩٨٨ ، ص ١٦) .

٣ - النظـرة الماركسـية للاغتراب :

تعود " الماركسية " إلى مؤسسها (كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣) وصديقـــه (انجلـــز ١٨٢٠ - ١٨٩٥) وقد بدأت في النصف الثاني من القرن ١٩ ، ثم تابعهما (فلاديمير لينين ١٨٧٠-١٩٢٤) .

ومن المعروف أن " ماركس " تأثر بالفلسفة الألمانية المادية التي كانت سائدة في عصره ، وأخذ من " هيجل " الجدل بعد أن عدله وصححه من وجهة نظره ؛ لأن " هيجل " يبدأ الجدل من الفكرة ، ويجعل الواقع نتاجا لها .

أما " ماركس " فبدأ بالجدل من الواقع المادى ، وجعل الفكرة نتاج الواقع ، من هنا انبثقت المادية الجدلية في تفسير كافة حقائق الوجود والطبيعة والإنسان . فالمادة في رأيه هي الحقيقة الوحيدة في العالم ، وأسبـــق من الفكـــرة وأصـل وجودهـــا

كما تأثر " ماركس " بالاقتصاد السياسي الذى وضع أسسه " آدم سميـــــث " و" ديفيد ريكاردوا " وكانا أول من آثارا نظرية القيمة في العمل ، التي فسرت بأنها ضد العمال ، حيث أصبح هدف الاقتصاد الرأسمالي هو تشغيل العمال في انتاج السلع مقابل أجر يوازى جهد العامل .

وقد رفض " ماركس " هذا التفسير ورأى أن قيمة الإنتاج في العمل مرتبط بالوقت اللازم له ، وبحاجات العمل الأساسية في العمل . ومن هنا فقد تضمنت نظريته الدعوة أن تكون كل وسائل الإنتاج ملكا لمن يعملون فيها حتى يعود الفائض كله عليهم بالفائدة ، ومن ثم تنمحي الفروق الطبقية .

" وينطلق " ماركس " من أن جذور الاغتراب تكمن في العمل المغترب ، الذى يعتبره أساسا لكل أشكال الاغتراب في المجتمع الطبقي سواء كانت اجتماعية أو سياسية " أو أيدلوجية

واختياره لهذا المدخل يضعه في مواجهة البناءات التخيلية المجردة " لهيجل " الذى يعتبر العمل عملا روحيا ، ويرى أن تجاوز الاغتراب يأتي عن طريق الحب أو الدين أو الفلسفة وفي النهاية عن طريق الدولة " (نبيل اسكندر ، ١٩٨٨ ، ص ١١١) .

هذا وقد تأثر " ماركس " بفكرة الاغتراب عند " هيجل " ، ولكنه رفض تفسيرات " هيجل " المجردة والمثالية ، لأنها اهتمت من وجهة نظره بالتركيبات العقلية المجردة على حساب الإنسان الواقعى التاريخي ، ومن ثم نظر " ماركس " إلى الاغتراب بوصفه ظاهرة اجتماعية وإلى الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا ، وإلى طبيعته بوصفها محصلة للعلاقات الاجتماعية " (محمد ابراهيم عيد ، ١٩٩٠ ، ص ٤١) .

" وماركس يرى أن النظام الاقتصادى هو السبب في اغتراب الإنسان ، ويتمثل في العمل الذى أصبح مفروضا وليس اختياريا .

والعمال قلما يسيطرون على العمل ، والآخرون هم المسيطرون ، بل إن العامل نفسه أصبح سلعة في سوق العمل ، وبالتالي نشأ الاغتراب من عدم قدرة العامل على تحقيق ماهيته أو الشعور بوجوده " .

" the new Encyclobedia Britannice , ١٩٧٤ ، ص ٥٧٤

وفي هذا الصدد ينظر ماركس إلى الاغتراب باعتباره العملية التي يفقد الفرد خلالها قدرته على التعبير عن ذاته ، التى تحولت ، وصارت تبدو متمثلة في استغلال إنتاج العمال بواسطة الرأسمالي ، وهو يشير هنا لوظيفة الاغتراب بالنسبة لطبقة " البلورتاريا " (١) ،والتي تشعر بذاتها مسحوقة ، بواسطة الاغتراب الذاتي .

" والنتيجة التي يراها في ضوء ذلك ،تتحدد على النحو التالي :

---

(١) طبقة العمال .

١ - اغتراب العامل المنتج عن ناتج عمله ، الذى يتعارض معه كشيء مغترب ، وكالقوى التي تعتمد على العامل الذى ينتجها ، بقدر ماتسيطر عليه وتستعبده .

٢ - اغتراب العامل المنتج عن ناتج عمله ، أى عن ماهية العمل ذاته كنشاط لاينتمي إليه ، والاغتراب عن الطاقات الروحية .

٤ - النظرة الوجودية للاغتراب :

الوجودية هي فلسفة الوجود الإنساني ، وهي تستند إلى مبدأ أساسي هو أن وجود الإنسان هو مايفعله ، وأفعاله هي التي تحدد وجوده وتكونه ، ولهذا يقاس الإنسان بأفعاله .

" وكانت بداية الافكار الوجودية في ألمانيا علي يد " كيركجورد " الأب الروحي الأول للوجودية ، الذى أكد على الفلسفة الوجودية الفردية فى مقابل الاهتمام بالجماعة والوجود الانعزالي للفرد في عصر سيطر فيه العقل ، وفقد فيه الإنسان فن العيش ، ولم يعد يعرف كيف يعيش هذا الإنسان المفرد أو الذات المنفردة التي هي مركز البحث عند " كيركجورد " وأحوال الإنسان الوجودية الكبرى مثل الموت والخطيئة والقلق والمخاطرة وهي المقومات الجوهرية لوجوده . كما أن الحرية والمسئولية والاختيار هي المعاني الكبرى في حياته " (سهام العراقي ، ١٩٨٨ ، ص ص ١٢ - ١٥) .

وتتطلب الوجودية من المتأمل في كل زمان ومكان أن يترك التأمل في الفكر المجرد وأن يتعرف امكانات تفكيره الخاص المشروط باعتباره وجوديا فرديا ليعرف كيف يحيا وليحيا الحياة التي يعرفها .

فالأخلاق الوجودية أخلاق ذاتية جزئية متغيرة ، فالإنسان الفرد في حريته الحقيقية هو الذى يخلق قيمه ، ويبتكرها ويشرعها لنفسه بنفسه ، ولايستطيع أحد ، بل ولاتستطيع أية أخلاق مكتوبة ، أو أية قيم جاهزة أن ترسم لهذا الفرد الحر طريقا أخلاقيا معينا ، بل ولاتستطيع حتى أن تساعده على أن يسلك مسلكا أخلاقيا . فالأخلاق - عند الوجوديين

- لاوجود لها ، وإنما الموجود فقط هو هذا الفعل الخلقي الصادر عن هذه الذات الفردية المعنية أو تلك ، وكما أن تماسك اللوحة الفنية لاوجود لها قبل أن تخرج هذه اللوحة إلى حيز الوجود ، فإن أخلاقية الفعل لاوجود لها إلا بعد أن يبدو هذا الفعل عن ذات إنسانية فردية تضفي عليه ماله من معنى أخلاقي ." (سعد الصادق ، ١٩٧٤، ص ٤١٧) .

وهذا مايؤكده " سارتر " حين يصر في كثير من كتاباته أن الإنسان في أصل وجوده ، يحدد بنفسه خصائص وصفات وماهية مايريده لنفسه ، حيث إن جوهر فلسفة الوجودية تتمثل في أن الإنسان حر في حياته ، وفي اختيار صفاته .

وتبعا لذلك فان الاغتراب عند الوجودية " يمثل ضربا من ضروب الوجود الزائف غير الأصيل ، الذى يسقط سقوطا يفقد معه حريته ومناط إنسانيته وجوهر وجوده .

ومن هنا كانت الحرية عند الوجوديين مرتبطة بالاغتراب ارتباطا وثيقا ، فهي لاتكون ولاتكشف عن معدنها الحقيقي إلا من خلال عملية قهر الاغتراب المستمرة " (محمود رجب ، ١٩٧٨ ، ص ٢٠) .

ويذهب " سارتر " إلى أن هناك علاقة حتمية لاغتراب الإنسان ؛ لأنه يعايش اغترابه من خلال نظرة الآخرين له ووجود الآخرين, فحتى إذا أفلح المرء فى الابتعاد عن الآخرين وتجنبهم ، فإن اختياره لهذا التجنب دليل جديد يؤكد وجود هؤلاء الآخرين ، وهذا يعني أن اغتراب الإنسان أمر حتمي لامفر منه .

ويتفق مع هذا الرأى (هوك Hook ، ١٩٦٢) حين يؤكد على أن الإنسان في حياته يعيش مغتربا بصورة جدليـة . فالفرد الذى لايستطيع أن يتلاءم ويتوافق مع المجتمع الذى يعيش في وسطه يقع فى الاغتراب ؛ لأنه إذا أراد أن يتجاوز الاغتراب عن المجتمع فلابد أن يتنازل عن ذاتيته ليلتئم بالمجتمع ، وهنا تنبثق الجدلية ، فإذا تنازل عن ذاتيته وقع في الاغتراب عن الذات ، واذا تنازل عن التوافق الاجتماعي وقع

في الاغـتراب الاجتماعي . فالاغتراب في رأيه واقع لامحالة " (ص ٥٩) .

ثانيا الإطار الاجتماعي للاغتراب :

يتحدد الاغتراب في علم الاجتماع بتحليل البناء الاجتماعي للمجتمعات المعاصرة ، وذلك للوقوف على طبيعة وحدود اغتراب الإنسان عن المجتمع والتنظيمات الاجتماعية ، واغترابه عن نفسه ، باعتبارها حالات تتسم بها المجتمعات المعاصرة ، ومن ثم كان اهتمام علم الاجتماع بدراسة الإنسان الاجتماعي ، إذ إن هناك رابطة عضوية وأخلاقية تصله بمجتمعه الأمر الذى يجعل هذه الرابطة ذات طبيعة اجتماعية .

" وتحوى ظاهرة الاغتراب باعتبارها ظاهرة اجتماعية ثلاثة جوانب تتمثل في :

١ - الجوانب الثقافيـــة .
٢ - الجوانب الاجتماعيـة .
٣ - الجوانب الشخصيـــة .

أما عن الجوانب الثقافية لظاهرة الاغتراب ، فتشتمل على نسق القيم الموجهه ، وبُعد المعرفة بالأهداف والوسائل ، وبُعد اللامعنى وبُعد اللامعيارية .

وتتناول الجوانب الاجتماعية بُعد سلب الحرية في النسق الاجتماعي على مستوى حرية المبادأة ، وحرية التنفيذ ، وتوافق المغترب مع المواقف الاجتماعية في النسق .

وتتجلى الجوانب الشخصية في مظاهر الاغتراب النفسي ، والبعد العام للاغتراب النسقي .

فظاهرة ربط الاغتراب بإطارها الثقافي والاجتماعي والشخصي هي ربط الاغتراب بالإطار الثقافي الذى يحيط بهذا السلوك ، وبالعناصر الثقافية التي تتخلل السلوك الإنساني وتشكله وتحدد مساره " . (السيد شتا ، ١٩٨٤ ، ص ٣٣١) .

" فالاغتراب الجماعي يضم أشكالا عديدة للاغتراب الاجتماعي ، فيشعر بعض أعضاء الجماعات سواء الوثنية أو العنصرية أو الأقليات الدينية بالاغتراب الاجتماعي بسبب انتمائهم إلى جماعة معينة ، فالسود واليهود والكبار والصغار والعمال والفقراء والمفكرون قد يشعرون بالاغتراب . وأحيانا يبدو الاغتراب الجماعي على أنه شيء موروث ، وقد يعتمد على التقليد أو التعليم ، وقد لايكون اغترابا اجتماعيا كاملا بالضرورة ؛ اذ أحيانا يؤدى الشعور بالاغتراب إلى تحقيق الوحدة بين أعضاء الجماعة ، وتقاس درجة الاغتراب الجماعي بدرجة التفاعل والاندماج بين أعضاء المجتمع ." (فيوريلكت أجنسي Feuerlicht Igncy) ١٩٧٨ ، ص ص ١١٦ ، ١١٧) .

" ويذهب (كينت كينستون Kenneth Keniston) ١٩٨٥ إلى أنه من الخطأ أن نتجاهل دور الأسرة ، وأية مؤسسة اجتماعية التي تقوم بتشكيل دوافع الشباب وقيمهم وتوافقاتهم (ص ٣٠٩) .

وهذا مايرمي اليه (دور كايم Durkheim) حين جعل الاغتراب مرتبطا بسياق العلاقات المنتظمة ، وبالأدوار الاجتماعية (١) . والتفاعل الاجتماعي (٢) بين الإنسان ومجتمعه ، وأكد على النسق الثقافي ، والتوجيه الداخلي الذى يهتم بالأهداف الفردية كمصدر للدافع ، وركز بصورة أساسية على موضوع القيم الاجتماعية (٣) كعامل مهم في وجود الاغتراب من عدمه ، وهو مايلخصه في مصطلحه الذى اشتهر به والمتمثل " بمصطلح" الأنومي " (٤) ،وقد استعمله لكي يصف حالة المجتمع ، الذى يعاني من تصدع في بنائه الاجتماعي ، وتوصل إلى نتيجة مفادها أن دوافع وأسباب ظاهرة الانتحار موجودة في إحساس وعواطف الأفراد ، ولابد من ضبطها والتحكم بها من قبل سلطة المجتمع ؛ لأن الأفراد لايملكون مثل هذه السلطة ، التي تعمل على حسب معايير اجتماعية ضابطة ، وعندما يفقد المجتمع قوة السلطة ، أو بعبارة أخرى يفقد قدرته التنظيمية تتلاشى معاييره ، وتسود حالة من التداعي والتسيب ، وهذه الخصائص هى ماأطلق عليها ظاهرة " الأنومي " أو فقدان المعايير ." (فايز الحديدى ، ١٩٩٠ ، ص ٣٠) .

---

(١) Social roles

(٢) Social Interaction

(٣) Social values

(٤) Anomie

ويرى " دوركايم " أن عدم الالتزام بمعايير المجتمع تجعل الإنسان مغتربا ؛ لأن الاغتراب هنا هو " شعور ينتاب الفرد ، فيجعله غير قادر على تغيير الوضع الاجتماعي الذى يتفاعل معه ، وبالتالي لايستطيع توجيه سلوكه ومعتقداته بسبب غياب المقاييس المتعارف عليها اجتماعيا ، ويتولد شعور الفرد بأنه غريب عن الأهداف الحضارية لمجتمعه نتيجة لتصدع المعايير والقيم ، وتعكس الخلل الواضح في النظام الأخلاقي أو مايعبر عنه بالضمير الجمعي .

وهنا تتضح نقطة الاختلاف بين " دوركايم " و" ماركس " الذى يرى أن القيم الاجتماعية هي نفسها سبب اغتراب العامل عن عمله ومجتمعه ونفسه ، بينما يرى " دوركايم " أن القيم الاجتماعية هي التي تحقق توافقه ، ويتفق معه (بارسونز Parsons) ، حيث يؤكد على الجانب المعيارى في الحياة الاجتماعية ، وأن المجتمع عنده ماهو إلا نظام أخلاقي ، ويؤكد على فاعلية المعايير الأخلاقية في الفعل الاجتماعي .

وتعد التنشئة الاجتماعية في نظر (بارسونز) مصدرا لإنسانية الانسان ، وهي الوسيلة التي تجعل الانسان مجرد أداة أو وسيلة للسعي لغايات الآخرين ، ولهذا يغترب الانسان في نظره خلال عملية الضرورة البشرية . وقد خلص إلى تحليل لأنماط المغترب وتتمثل في : (العدوانية ، والتسلط ، وعدم القابلية ، والانسحاب ، والخضوع ، والمراعاة الكاملة ، والمراوغة) (السيد شتا ، ١٩٨٤ ، ص ص ١٧٩ ، ١٨٧) .

أما (سرول Srole) فيرى " أن الاغتراب يتمثل في الشعور بعدم التكافل الاجتماعي ، أو الشعور بالاغتراب عن الآخرين ، ويقابلها الشعور بالانتماء إلى الآخرين ، وهو الاتجاه نفسه الذى يراه (نتلر Nettler) والذى يرى أن الاغتراب في معادات ثقافة المجتمع " (أمل بشير ، ١٩٨٩ ، ص ٣٢) .

ويجمل (سيمان Seeman) بعض مظاهر الاغتراب من زاوية علم الاجتماع على النحو التالي : (١)

١ - " انعدام القوة : ويعني شعور الفرد بأنه ليست لديه القدرة على التأثير في المواقف الاجتماعية .

٢ - فقدان المعنى : ويتضمن عجز الفرد عن الوصول إلى القرار ، أو معرفة ماينبغي أن يفعله ، أو إدراك مايجب أن يعتقده موجها لسلوكه .

٣ - فقدان المعايير : وهو لجوء الفرد إلى استخدام أساليب غير مشروعة ، وغير موافق عليها اجتماعيا لتحقيق أهدافه .

٤ - العزلـــــــة : ومعناها انفصال الفرد عن تيار الثقافة السائدة ، وتبني مبادىء أو مفهومات مخالفة ، مما يجعله غير قادر على مسايرة الأوضاع القائمة .

٥ - غربـة الـــذات : وهي ادراك الفرد بأنه أصبح مغتربا حتى عن ذاتـــــه . "
(عاطف غيث ، ١٩٧٧ ، ص ٢٠) .

" وهذا المفهوم عند سيمان يختلف عما هو عند " ماركس " حيث يفترض الأخير أن الاغتراب له علاقة بالعمل بينما عند سيمان يعتمد الاغتراب على فقدان المؤشرات الخمسة .. وكلها متعلقة بالمجتمع ." (Peter ، ١٩٧٣ ، ص ١٥٩) .

ثالثا : الاطار النفسي للاغتراب :

" بالرغم من أن علم النفس قد استقل - مع غيره من العلوم الانسانية - عن الفلسفة أم العلوم ، الا أن علم النفس شأنه شـــأن هذه العلوم قد ورث العديد من القضايا والمصطلحات الفلسفية التي لم يستطع البت فيها لا لشيء إلا لأنها تنصب على الإنسان في نهاية الأمر ، ومادام الإنسان يعـد موضوعا مشتركا بين الفلسفة وعلم النفس ، فإنه من المستحيل أن ينفصل الأخير عن ميدان الفلسفة الضاربة في أعماقها .

وقد تأثر علماء النفس بالتراث الفلسفي ، وخاصة الطرح " الهيجلي " والماركسي والوجودى لمشكلة الاغتراب ، ونجد ذلك في كتابات " أريك فروم " و" كارين هورنـــي " و" اريك اريكسون " و " كينث كينستون " وغيرهم ممن تصدوا بالدراسة لمشكلة الاغتراب ". (عادل الأشول ، ١٩٨٥ ، ص ص ٥١ ، ٥٢) .

فالشخصية المغتربة نمط من التجربة يعيش الانسان فيها نفسه كشيء غريب (غريب عن نفسه) ، فالمجتمع الحديث قد تعقد فأصبح نتاج الإنسان سيدا ، مع أنه أنتج لكي يكون في خدمة الإنسان ، لقد نحى هذا الإنتاج الإنسان عن عرش السيادة واحتل هو مكانه ، وتحول السيد إلى خادم وبهذا فقد الإنسان نفسه ، وغدت شخصيته للبيع ، وفقدت قدرا كبيرا من الشعور بالكرامة ، وهو الشعور المميز للإنسان حتى في أشد الحضارات البدائية . إنه يفقد معظم شعوره بنفسه باعتبارها ذاتا متفردة لايمكن تكرارها . فالشعور بالنفس ينبع من ممارستي لنفسي كموضوع لتجاربي أنا ، وفعلي أنا " .(مجاهد عبد المنعم ، ١٩٨٥ ، ص ١٥٦) .

وإذا فقد الانسان نفسه فربما يغترب عن مجتمعه ، لأن هناك " تفاعلا بين الاغتراب عن الذات والاغتراب عن المجتمع ، وأن زملة أعراض الاغتراب عن الذات تؤدى إلى الاغتراب الاجتماعي ذلك أن الفرد عندما يغترب عن ذاته ، فان اغترابه ينعكس على المجتمع الذى يعيش فيه " (محمد ابراهيم عيد ، ١٩٨٧ ، ص ٣٥) .

أ - <u>نظرة " فرويد " للاغتراب</u> :

فسر " سيجموند فرويد " (١٨٥٦ - ١٩٣٩) الاغتراب من زاوية التحليل النفسي حيث يعتبر القلق والاغتراب - باعتبارهما مرضا العصر - من هذه الظواهر الاجتماعية التي تسود المجتمعات الصناعية ، ويرجع ذلك إلى نشأة الحضارة وتطورها ، والتي أسسها الإنسان دفاعا عن ذاته إزاء عدوان الطبيعة عليه ، ولكنها جاءت على نحو يتعارض وتحقيق أهوائه . ومن هذا المنطلق يذهب " فرويد " إلى أن كل إنسان في الواقع هو عدو الحضارة ، لأنها تقوم على كبت الغرائز " . (أحمد أبو زيد ، ١٩٧٩ ، ص ص ٧-٩) .

" وخاصة عندما يواجه بتعقيدات الحضارة وضوابطها المختلفة التي تقف حائلا دون إشباع رغباته وحاجاته ، مما يؤدى إلى شعوره بالكبت (١) كحيلة دفاعية يلجأ إليها لمحاولة التوفيق بين رغباته وإشباعاته ، والنظم والضوابط الاجتماعية والثقافية التي تفرضها ظروف التغير المستمر للمجتمع . وعندما تزداد هذه النظم تعقيدا تظهر لدى البعض صور المعاناة من الشعور بالقلق والاغتراب . ويشير (فرويد Freud) إلى أن الشعور بالقلق والاغتراب يكون نتيجة الانفصال عن الأنا ، عندما يتوحد الفرد مع أحد الجانبين على حساب الجانب الآخر " . (هاني الأهواني ، ١٩٨٩ ، ص ٢٢) .

وهكذا يتضح أن " فرويد " يؤيد الاغتراب باعتباره سمة متأصلة في وجود الذات وفي حياة الإنسان ، إذ لاسبيل مطلقا لتجاوز الاغتراب بين الأنا والهـو والأنا الأعلى ولامجال مطلقا لاشباع كل الدوافع الغريزية ، كما أنه يستحيل التوفيق فيما يتصل بالأهداف والمطالب .

فاغتراب الأنا عن الهو ؛ أى اغتراب الشعور عن اللاشعور (الذى هو مستودع الغرائز ، ومناط قوى الحياة ومجال العمليات النفسية الأولية) أمر حتمي " (نبيل اسكندر ، ١٩٨٨ ، ص ٢٨٦) .

ب - نظرة " فروم " للاغتراب :

" تتلخص وجهة نظر (فروم Fromm) حول الاغتراب في أن الإنسان يشعر بالوحدة والعزلة ، وهذه لاتوجد لدى أى نوع آخر من أنواع الحيوان ، بل إنها موقف إنساني نوعي ، فالطفل مثلا يتحرر من الروابط الأولية بوالديه ، ونتيجة لذلك يشعر بالعزلة وقلة الحيلة شأنه في ذلك شأن العبيد ورقيق الأرض ، فما أن انتهت ثورتهم ، ونالوا حريتهم حتى وجدوا أنفسهم في غمرة الشعور بالعزلة وقلة الحيلة كثمن للحرية التي ناضلوا من أجلها كثيرا . (عادل الأشول ، ١٩٨٥ ، ص ٥٢) .

---

(١) Depression

" وهنا نجد " فروم " يتحدث عن الاغتراب المتمثل في الانعزال الناجم عن تحرير الانسان من روابطه التقليدية ، وهو ذلك النوع من الاغتراب الذى يوقع بالإنسان في حالة من الشك والقلق ، ثم أنه يرى أن هذا الاغتراب سيفضي بالضرورة بالإنسان إلى نوع آخر من الاغتراب الذى يتمثل في الخضوع ، حيث يلتمس الفرد بخضوعه لقائد أو للدولة ، ومن ثم يترتب على هذا الخضوع فقدان الإنسان للسيطرة ، بقدر مماثل لفقدان السيطرة التي يتعرض لها الإنسان لجانب الحرية المرتبطة بالانعزال ." (السيد شتا ،١٩٨٤ ،ص٤٣) . ويرى " فروم " أيضا أن الاغتراب في المجتمع الحديث يكاد يكون مطبقا ، فالمغترب لايحيا منفصلا عن نفسه فحسب ؛ بل عن إخوانه في المجتمع عن العمل وعن الأشياء المحيطة به والتي يجهلها وإن كان يستهلكها ، وكذلك عن الحكومة التي تدبر أمره ، وتصبح شخصيته مسيرة ليس لها أن تختار ، وإذا سارت الأمور على هذا النحو بغير إصلاح فسينتهي بالإنسان حتما إلى مجتمع مختل في توازنه ، وكل فرد في هذا المجتمع ذرة منفصلة لايمسكه بغيره رباط ،وترجع أسباب الاغتراب عند " فروم " إلى طبيعة المجتمع الحديث وسيطرة الآلة وهيمنة " التكنولوجيا " الحديثة على الإنسان فهي من صنعه ، ولكنها تسيدت عليه ." (محمد عيد ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠) .

جـ - نظرة " هورني " للاغتراب :

يحتل مفهوم الاغتراب مكانة محورية من نظرية " كارين هورني " في التحليل النفسي للعصابية ، " فلقد وجدت في هذا المصطلح التعبير المناسب عما يكابده بعض البشر من انفصال عن ذواتهم ، وذلك عندما ينفصل الإنسان عن مشاعره الخاصة وكذلك رغباته ومعتقداته وطاقاته ، أنه فقدان الإحساس باعتباره كلا عضويا ." (عادل الأشول ،١٩٨٥ ،ص ٥٤) .

وتشخص (هورني Horney) حالات اغتراب الذات بقولها : " إننا لانستطيع أن نقهر أجزءا أساسية في أنفسنا دون أن نصبح غرباء عن أنفسنا ؛ إذ إن الفرد يصبح ببساطة غافلا عن حقيقة مايشعر به ويحبه ويرفضه ويعتقده . باختصار يصبح غافلا عن فهم ماذا يكون ! ونتيجة لافتقاره إلى فهم هويتـه ؛ فإنه يحيا حياته من نسيج

تصوره ، ويفقد الاهتمام بالحياة ؛ لأنها ليست مايرغب فيه حقيقة فليس في وسعه أن يتخذ قراراته ، وبالتالي فهو في حالة من الوجود الزائف مع نفسه ." (محمد عيد ، ١٩٨٧ ، ص ٣٢) .

وتؤكد " هورني " أن الاغتراب في حقيقته هو اغتراب عن الذات وأن هناك نمطين من الذات الفعلية (١) والذات الحقيقية (٢) . وتمثل الذات الفعلية الوضع الحالي للإنسان في وقت بعينه ، أما الذات الحقيقية فهي تمثل ماينبغي أن يكون عليه .

واغتراب الذات يعني الانفصال أو التعارض بين هذين النمطين ، فإذا اغترب المرء عن ذاته الفعلية لحساب ذاته الحقيقية ، فإنه ينفصل أو يحرم من مركز القوى الأصيلة ، والطاقة الدافعة الكامنة في داخله "

د - نظرة (اريك اريكسون Erikson) للاغتراب :

تتضح رؤية " اريكسون " حول مفهوم الاغتراب من فكرة تطور هوية الأنا كنقيض لتشتت الأنا أو تميع الهوية (٣) . ويعني بذلك أن تحقيق الاحساس بالهوية يبدأ لدى الفرد منذ فترة المراهقة ، ويتوقف على معرفته لقدراته وإمكاناته وواجباته ، ومحاولة التوفيق بينها والأدوار الاجتماعية (٤) المختلفة وتوقعات كل دور ومدى فهمه لطبيعة دوره .

" وتمثل قدرة الفرد على إدراك هذه العلاقات واستيعابه لها تماسك الهوية وتأكيدها مقابل تميعها أو انتشارها . ويرى " أريكسون " أن ذلك يشكل صعوبة أمام الشباب خاصة لما يتسم به عالمنا اليوم من سرعة التغير ، ووجود الفجوة بين الأجيال ، مما يجعل أدوارهم المتوقعة متباينة " (هاني الأهواني ، ١٩٨٩ ، ص ٢٦) .

---

(١) Autual self
(٢) Real self
(٣) Identity diffusion
(٤) Social roles

فالاغتراب لدى " أريكسون " معوق أساسي في تطور حرية الأنا أو في تكوين موقف واضح تجاه العالم . وهذه الرؤية وإن اشتركت مع نظرية " فروم " و " هورني " في عدم تحديد المجال الذى يستخدم فيه هذا المفهوم على نحو دقيق ، إلا أن تعريفه يتميز بأنه يفتح الباب لدور فعال للتربية في معالجة مفهوم الاغتراب .

وبناء على ماتقدم يتبين أن أهمية رؤية " أريكسون " تركز على دور التربية في إحداث التفاعل الاجتماعي في تشكيل هوية الفرد وأن المراهقة هي المرحلة المحورية في حياة الفرد . كما يرى " أريكسون " أن الإعداد لمراهقة ناجحة ، يجب أن يبدأ والطفل مايزال في المهد صبيا عن طريق التربية في الأسرة والمدرسة ."(محمد عيد ، ١٩٨٧ ، ص ٣٣) .

هـ - نظرة (كينث كينستون Keniston) للاغتراب :

وضع كينستون تصورا نظريا عن أهم مظاهر الاغتراب من خلال الدراسات التي أجراها على مجموعة من الشباب الأمريكي ، ويقوم هذا التصور على تحديد مفهوم الشعور بالاغتراب فيعرفه بأنه " فقدان أو غياب لعلاقة مرغوبة أو سابقة . وتتاول هذه العلاقة من خلال أربعة جوانب :

١ - مركز بؤرة(١) الاغتراب ، ويقصد به اتجاه هذا الشعور نحو الذات أو الموضوع .

٢ - الإحلال(٢) ، وهو مايحل محل هذه العلاقة القديمة المفتقدة عند الشعور بالاغتراب .

٣ - الشكل(٣) ، ويقصد به الصورة التي تظهر الشعور بالاغتراب وهي الرفض والثورة .

٤ - الأداة أو الوسيلة(٤) ، وتشير الى مصادر ظهور الشعور بالاغتراب وهي :

---

(١) Focus
(٢) Replacement
(٣) Mod
(٤) Agent

أ - فقدان الثقة في الآخرين .

ب - النظرة التشاؤمية للمستقبل .

جـ - الافتقاد إلى وجود أهداف طويلة المدى ، وعدم سعي الفرد إلى تحقيق ذلك .

د - ظهور مشاعر الغضب ، وعدم الرضا نحو معظم أفراد المجتمع " .(هاني الأهواني ، ص ص ٢٥ ، ٢٦) .

ويذهب " كينستون " إلى أن الذين يعانون من الاغتراب لديهم شعور بفقدان الثقة بأنفسهم وفي الطبيعة الإنسانية ، الأمر الذى يجعلهم يرفضون كل شيء . ويكون هذا الرفض متصفا بالازدراء والمرارة والعنف ، ويعانون من اكتئاب واضطراب نفسي ، وعدوانية تجاه أنفسهم " (Keniston ، ١٩٦٤ ، ص ٥٤) . ولكن هذه الرؤية لاتفقد الأمل في المغترب ، وخاصة إذا كان شابا أو مراهقا فلكل مرحلة جوانبها السلبية أو الايجابية في الوقت نفسه . وأن السلوك غير السوى يمكن تصحيحه في مرحلة لاحقة .

يتضح من هذا الاستقراء لظاهرة الاغتراب ، أنها نالت اهتماما كبيرا من قبل الباحثين في العلوم الإنسانية ، لعلاقتها الوثيقة بالإنسان منذ القدم ، ولكنها لم تعالج بصورة منهجية إلا في العصور المتأخرة ، خاصة في عصر " هيجل " الذى يعد أبا لمصطلح الاغتراب ، فهو الذى جعل له مفهوما علميا تلقفه الباحثون واستفادوا منه . ولكنهم اختلفوا في تعريف الاغتراب وتحديده ؛ وذلك نظرا لتعدد المناهج الفكرية للباحثين ، لأنهم كانوا يعكسون رؤاهم الفكرية والثقافية والدينية . وحين يكون الموضوع إنسانيا ، فإن الاختلاف والتباين في تفسيره وارد .

ومن هذه الاختلافات ظهور اتجاه يقول بأن الاغتراب سمة تميز الإنسان منذ القدم ، وأن اغترابه يعني انفصاله عن وجوده الانساني وأنه يمضى في الحياة بوصفه كائنا مغتربا . والبعض يرى أن الشعور بالاغتراب حالة مؤقتة تصيب الفرد نتيجة لبعض عوامل التنشئة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية تؤثر في الفرد في فترة معينة من حياته .

وفي ضوء ماتم استعراضه حول موضوع الاغتراب ، يمكن الوصول إلى ملامح أو سمات لهذا المفهوم وتتمثل هذه الملامح في الآتي :

- انسلاخ الإنسان وانفصاله عن نفسه ومجتمعه .
- فقدان الهوية واختلال الشخصية .
- الشعور بعدم وجود معنى لحياته ، وهدف يسعى لتحقيقه .
- رفض القيم والمعايير الاجتماعية التي توجهه في الحياة .
- الإحساس بالعجز وعدم القدرة على مواجهة الحياة ومصاعبها .
- عدم القدرة على التأثير في مجريات الحياة .
- الاستسلام الكامل للضياع .
- الانعزال عن المجتمع والانكفاء على الذات .
- شعور الفرد بأنه أصبح شيئا ماديا مجردا من الإحساسات الإنسانية .
- الرغبة في تدمير كل شيء يعترضه في سبيل تحقيق مايريد .
- عدم الانتماء وفقدان الهوية .
- الشعور بالقلق .

ويلاحظ مما سبق أن موضوع الاغتراب تمت معالجته في ضوء النظريات الفلسفيـــــــــة والاجتماعية والنفسية الغربية التي تعكس مايؤمن به الباحثون من فكر ينظرون من خلاله الى الإنسان والحياة والكون . وارجعوا اغتراب الانسان إلى عوامل مادية فقط،أى دون النظر إلى العلاقة بين الاغتراب والتديـــن فأصحاب نظرية العقد الاجتماعي (روسو ، وهوبر ، ولوك) أرجعوا سبب اغتراب الإنسان إلى تخلي الإنسان وتنازله عن حقه الطبيعي إلى السلطة ومؤسساتها من أجل مصلحته وتوفير أمنه .

أما " هيجل " فيرى أن الدين نوع من الهروب من هذا العالم الفعلي إلى عالم الماوراء ، ويعتبره سببا من أسباب اغتراب الإنسان . وجاء بعده " ماركس " ليرفض الدين وكل الغيبيات ، ويرى أنها تفصل الإنسان عن الواقع . وجعل الجانب الاقتصادى هو السبب في تغلب الإنسان على الاغتراب . ونظر " ماركس " إلى الاغتراب بوصفه ظاهرة

اجتماعية ، وإلى الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا وتاريخيا ، وإلى طبيعة الإنسان كمحصلة للعلاقات الاجتماعية .

ويقترب " سارتر " من هذا التفسير حين يرى أن اغتراب الإنسان نتيجة لصراعه مع علاقات الانتاج ، وأنه في شعور دائم بالاغتراب .

ويرجع " دوركايم " أسباب اغتراب الفرد إلى تخلي الإنسان عن قيم المجتمع ومعاييره فالضمير الجمعي هو الذى يجب أن يسود ، وأن سلوك الفرد لابد أن يجارى القواعد التي وضعها المجتمع ، والتي حددت سلفا حتى ينجو من الاغتراب .

ويرجع علماء النفس أسباب الاغتراب إلى مايحيط بالانسان من مشاكل نفسية واجتماعية لاعلاقة لها بالمسائل الغيبية ، وأن علاقات التفاعل بين الفرد والآخرين ، وتأثير الضغوط الاجتماعية ومايتولد عنها تؤثر على اغتراب المرء سلبا وايجابا .

وهكذا يتبين مما سبق أن هناك تجاهلا تاما لموضوع الدين في حياة الإنسان . وهذا يمثل قصورا شديدا فى دراسة أهم العوامل الحقيقية التي تؤثر في اغترابه فتغييب الدين عن الإنسان اصطدام بفطرته . وبالتالي عدم وجود التوافق والتماسك الداخلي ، والتفاعل الخلاق والإيجابي بينه وبين نفسه من جهة ، ومجتمعه من جهة أخرى . فلهذا فقد حرص الباحث على اظهار البعد الإسلامي للاغتراب كما يلي :

رابعا : الإطار الإسلامي للاغتراب :

إن رؤية الإسلام للاغتراب تتبع أساسا من فهم شامل للإنسان والعوامل التي تؤثر في اغترابه أو توافقه ، فإذا كان الاغتراب في المذاهب الوضعية هو انفصال الإنسان عن ذاته أو مجتمعه ، وشعور بعبثية الحياة ، وتحلل من القيم ، ورفض المعايير الاجتماعية ؛ فإن الاغتراب في المفهوم الاسلامي ينبثق من انفصال الإنسان عن خالقه الذى خلقه وحدد له الهدف من وجوده .

فحياة الإنسان في الإسلام ليست عبثا ، بل هي حياة جادة ومسئولية يقوم بها في هذه الدنيا ، ليؤدى رسالته فيها ، ويعمرها بالخير . فمهمة الإنسان من أنبل المهام ، وهي استخلافه في الأرض بأن يعمرها ويترجم شريعة الله سبحانه فيها وقد مهد السبيل أمامه ، وأعطاه الله مفاتيح يستطيع استخدامها لترقية حياته وزوده بالعقل ليكتشف من قوانين الكون وأسراره ليتحضر ويبدع مايمكنه من الإبداع والتحضر .

والله عز وجل لم يجعل الكون صعبا معجزا للإنسان عن الإبداع ؛ أى أن الله سخر هذا الكون الفسيح ، وأعطى الإنسان القواعد وأمره بالعمل والاجتهاد ، ومنحه التصور الايجابي لدور الإنسان بمنأى عن التصورات السلبية ، التي تقوم بها المذاهب الوضعية والتي جردت هذا الإنسان من قدراته وحريته في استغلال الكون .

فالإنسان في الإسلام هو السيد الفاعل المريد الذى سخرت له الطبيعة لتلبية متطلبات خلافته في الأرض ، وإعماره لها في حفظ الله ورعايته " . (**عماد الدين خليل** ، **١٩٨٣** ، ص ص ٧ - ١٣) .

والإنسان الذى يفهم رسالته في الحياة ينجو من عبثيتها . أما إذا استسلم إلى غرائزه وملذاته ، التي تؤدى به إلى مأزق كبير حين يظن أن سعادته مرتبطة بإشباعها ، وحصوله على المال الذى كلما زاد تعمق جشعه أعماه وأغشى بصره وبصيرته فقد ضل . ومنهم من يرى سعادته في الجاه والمنصب وحين يصل إلى مبتغاه ، يصاب بالرعب الشديد خشية من ضياعه ، وخاصة اذا كان الأمر متعلقا بالسلطة والزعامة ، الذى لم يحصل عليها إلا بعد أن دفع الكثير من الجهد ، ومن هنا يصبح الإنسان في كبد دائم وتشتت وتعاسة بالغة ، وبالتالي يوغل في الاغتراب .

أما الإنسان المتدين الذى ربط نفسه بالله ، فانه يحطم أغلال الاغتراب باتصاله الدائم بالله ، وتكون الثمرة المبتغاة سعادة تتأسس على الرضا والتوازن التام بين المطالب البدنية والروحية .

والتدين يتطلب فهما عميقا للدين حتى يكون له التأثير الكبير على الانسان . " ودافع التدين دافع نفسي له أساس فطرى في طبيعة تكوين الإنسان ، فالإنسان يشعر في أعماقه بدافع يدفعه إلى البحث والتفكير لمعرفة خالقه وخالق الكون وإلى عبادته والتوسل إليه والالتجاء اليه طالبا منه العون كلما اشتدت به مصائب الحياة وكروبها ، وهو يجد في حمايته ورعايته الأمن والطمأنينة واننا نجد ذلك واضحا في سلوك الإنسان في جميع عصور التاريخ ، وفي مختلف المجتمعات الإنسانية . فالطريقة التى يسلكها في عبادته قد تختلف تبعا لمستوى تفكيره ودرجة تطوره الثقافي ، غير أن هذه الاختلافات في تصور الإنسان لطبيعة الاله أو طريقة عبادته ، إنما هي في طريقة التعبير عن ذلك في طبيعة الدافع الفطرى للتدين الموجود في أعماق النفس البشرية " . (محمد نجاتي ، ١٩٨٧ ، ص ص ٤٧ ، ٤٨) .

فالتدين الحقيقى ، يوضح الأهداف ، ويضبط السلوك ، ويجعل الإنسان قويا صلبا لايميل مع كل ريح ، ويعطيه القدرة على التعامل الواضح مع البيئة التي يعيش فيها .

وهذا يناقض ذلك المفهوم الوجودى ، الذى يذهب إلى أن الإنسان لايستطيع أن يوجد ذاته إلا باطلاق العنان لرغباته وشهواته ؛ بحيث يفعل مايشاء ويترك مايريد ، غير مكترث بالعُرف والدين جاعلا من هواه الها يعبد من دون الله ، وقد وصفهم المولى عز وجل بقوله : " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون "(١) . ويقـــــول : " ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فرطا "(٢) .

فالإنسان حسب التصور القرآني قد اغترب عن الله ، حينما عصى أمره وأكل من الشجرة المحرمة ، فهبط من السماء وصار موجودا على الأرض يعيش في أزمة منتظرا عون الله ولطفه حتى يهديه سواء السبيل ، وتكون إليه الرجعى في آخر الأمر ، وأن الايمان

---

(١) الجاثية : ٢٣ .
(٢) الكهف : ٢٨ .

بالله هو الذى يحقق ذلك الأمان الذى يزول معه كل حزن وخوف ووحشة في الكون . " لاتحزن إن الله معنا "(١) وهو معكم أينما كنتم "(٢) . فضلا عما في الاسلام نفسه من سلام وسلامة لمن يعتنقه .

والمسلم هو من يقول " أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله " .هذه الشهادة في الإسلام ليست مجرد نطق لهذه الألفاظ بقدر إيمانه بموضوعها ومضمونها والعمل المستمر بها . وهذا الإيمان يبلغ من العمق حدا يصبح المسلم معه على استعداد للاستشهاد في سبيل الله وبهذه الشهادة تحقق أصالة وجود الإنسان على الأرض ، ذلك لأنها تحقق الانتماء الى الله مما يزول معه الشعور بالغربة الكونية ." (محمود رجب ، ١٩٨٨ ، ص ص ١٨١ ، ١٨٢) .

وهكذا يتبين مما سبق أن المسلم الملتزم شديد الصلة بالله ، لايشعر بالاغتراب حتى ولو كان وحده على الحق . وإذا كان مغتربا فهو عما يغضب الله ، وابتعاده عن الحياة الاجتماعية الزائفة ، والنظم الاجتماعية غير العادلة ، وهذه النظرة تناقض نظرية "دوركايم " الذى يحث على اتباع المعايير الاجتماعية حتى ولو كانت مخالفة للحق .

وحقيقة الأمر أن الموقف العدائي للدين من قبل علماء الاجتماع لم يقتصر على " دوركهايم " وتلاميذه في الغرب ، بل وجد تحمساً شديداً من الباحثين الاجتماعيين العرب(٣) الذين ينظرون الى الدين على أنه وهم ،وخيبة أمل الزمن الراهن ، ورد فعل سلبي للضمير الجمعي ، وعصاب نفسي ومأوى لموت بطيء .

---

(١) التوبة : ٤٠ . (٢) الحديد : ٤ .

(٣) منهم : ١ - عاطف عضيبات (دراسة منشورة بعنوان الدين في المجتمع العربي) (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٠) .

٢ - سمير نعيم أحمد : المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الديني (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٠) .

٣ - علي الكنز : الاسلام والهوية (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٠) .

٤ - عبد الباقي الهرماسي : علم الاجتماع الديني (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٠) .

وبناء على ماتقدم فان أحدهم وهو (على الكنز) أستاذ الاجتماع بجامعة الجزائر يدعو إلى ترك الاعتقاد بالدين فيقول : " قبل كل شيء علينا ترك الاعتقاد بالدين لأنه لم يبرهن على أن الدين أصبح بمثابة رؤية للعالم أو فهو وظيفة عكسية للتطور التاريخي والاجتماعي ." ولهذا فهو جمود عقائدى ، وانغلاق عقلي .

والالتزام بالدين في عرف (سمير نعيم) هو حنين الى الماضي وعودة الى الوراء ومنحى رجعي يجر العلاقات الاجتماعية الى أوضاع بالية لاتتناسب مع تقدم العصر .

كما أنهم يصفون الشباب المتدين بأنهم شخصيات مريضة ، وأنهم مرضى عقليون يعانون من الجنون الدورى أو جنون الاضطهاد والعظمة ، وتمسك الشباب بدينهم يفسره (سمير نعيم) بأنه مرض عقلي يعاني أصحابه من أوهام حيوانية ، وأن نظرتهم إلى المرأة تسقط مافي أنفسهم من مشاعر حيوانية مكبوتة ودونية وعدم ثقة بالنفس ، وهو تفسير فرويدى . ويصل به الحد من العداء إلى الدين أن يصور التسلح بالقيم الدينية بأنها مصيدة دمار للشباب وللمجتمع ، وجعله يرى أن المساجد تقوم بأدوار تضليلية .

ويعتبر بعض باحثي الاجتماع العرب بأن الطابع الإسلامي طابع غريب على المجتمعات العربية ، وانتشاره فيها يؤدى إلى الاضطرابات النفسية والعقلية بين الشباب وذلك بسبب رغبتهم في العودة إلى نموذج المجتمع الفاضل باللجوء الى الدين وماهو الا هروب من الواقع ورفض له وتعلق بأمل كاذب في الخلاص من المشكلات التي يواجهها ." (أحمد خضر ، ١٩٩١ ، ص ص ٧ ، ١٥) .

" ويلاحظ أن " دوركايم " لايعترف بأن الكيان النفسي للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية ، بل العكس في نظره أقرب إلى الصواب ، فالحياة الاجتماعية هي التي تشكل مشاعر الفرد ،وعليه فلا يجوز أن تفسر الحياة من نفسية الفرد كما يصنع علم النفس كله ، وإنما ينبغي أن نفرق بين الظاهرة النفسية والظاهرة الاجتماعية تفريقا كاملا .

ويقول : إن الدين والزواج ليسا فطرة ، والأخلاق ليست قيمة ذاتية ولاهي ثابتة على وضع معين ، وإنما تأخذ من المجتمع الذى توجد فيه ؛ لأن المجتمع هو الأصل في كل ظاهـــرة اجتماعيـــة وليس الإنسان .

ويتضح مما سبق أن هناك تشويها متعمدا ، وتشكيكا في الدين والأخلاق وربطا بين التحلل الديني والانحلال الخلقي من جهة وبين التطور من جهة أخرى ، وأن هذا التحلل حتمي لاقبل لأحد بوقفه ." (محمد قطب ، ١٩٨٧ ، ص ص ٣٥ - ٥٧) .

وقد جاء (ماركس " رافضا فكرة الدين ،وجاعلا كل نشاط الإنسان في نطاق المطالب الرئيسية له والتي تتركز على المأكل والمسكن والإشباع الجنسي . أما الدين والأخلاق والتقاليد فهي السخرية العظمى ، وفي ظل التفسير المادى للتاريخ لاوجود لله ، ولا الوحي ، ولا الرسالات .

ويعتبر الدين أفيونا للشعوب ، وهو شيء ابتدعه الإقطاعيون لتخدير العبيد والطبقة الكادحة عن المطالبة بحقوقهم المسلوبة ، وإغرائهم بالصبر على سوء أحوالهم والرضا به طمعا في جنة الآخرة ، مما ييسر لهؤلاء الإقطاعيين أن يستمتعوا بالثروات المغتصبة وهم آمنون ، فالدين في رأى " ماركس " اسطورة ابتدعها أصحاب المصالح .

أما " فرويد " فقد صور النفس الإنسانية أنها غرائز تحكم الإنسان وتسيطر على نشاطه ، ولاوجود للروح . والقيم عملة زائفة يتبادلها الناس وهم في حقيقتهم عالمون بأنها خداع . فالحياة كلها جنس ، ومنبثقة من خلال الجنس الذى يولد من لحظة الميلاد ، بل يولد الإنسان جنسا خالصا مركزا فى اهاب طفل حيواني صغير . فالرضاعة جنس ، ومص الابهام جنس ، وتحريك العضلات جنس ، والتبول والتبرز جنس ، والالتصاق بالأم جنس ، فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس (عقدة أوديب) ، والطفلة تعشق أباها بدافع الجنس (عقدة اليكترا) . فالدين والأخلاق والحضارة ينشأ من الكبت الجنسي الذى يعد خطرا ، لأنه يصيب النفس بالعقوبة والاضطرابات ." (محمد قطب ، ١٩٨٧ ، ص ص ٤٠ - ٥٠) .

وانطلاقا من هذه الأفكار التي أرجعت الاغتراب الى عوامل مادية وظاهرة اجتماعية ، وانفصال العمل عن العامل ، فان الرؤية الإسلامية تختلف عنها ، وهي تعترف بأهميتها إلا أنها ليست التفسير الوحيد لاغتراب الانسان .

فالرؤية الاسلامية لاتهمل العوامل المادية ، ولكنها تضيف أن هناك عوامل معنوية ، حيث ترجع اغتراب المسلم إلى بعده عن عقيدته ، وعزلته عن مبادئه ، وعجزه عن التلاؤم مع الأهداف الإيمانية ، وعدم التوافق مع الحياة الإسلامية الصحيحة ، وعدم الشعور بالانتماء إلى ربه ، ووطنه . فالانتماء لايكون للوطن فحسب ؛ وإنما إلى خالق الوطن . فقد يكون الإنسان موجودا في وطنه ، مقيما مع أسرته ، ولكنه يشعر بالاغتراب .

وهذا مايبينه أبو حيان التوحيدى حين عبر عن هذه الحقيقة بقوله : " أغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه ، وأبعد البعداء من كان قريبا في محل قربه ، لأن غاية المجهود أن يسلوا عن الموجود ، ويغمض عن المشهود ، ويقضي عن المعهود ، الغريب من إذا ذكر الحق هجر ، وإذا دعا الى الخير زجر ، وإن رأوه لم يدوروا حوله . الغريب من إذا أقبل لم يوسع له ، واذا أعرض لم يسأل عنه . الغريب في الجملة كله حرقة ، وبعضه فرقة ، وليله أسف ، ونهاره لهف ، وغذاؤه حزن ، وعشاؤه شجن ، وخوفه وطن " . (محمود رجب ، ١٩٨٨ ، ص ٤٣) .

ان هذا الصنف من الناس مغترب عن الناس الذين تجنبوا الحق . ولكنه ليس غريبا ولامغتربا عن خالقه . ومتوافق مع نفسه يشعر بالطمأنينة والرضا الداخلي ، وشعاره قول الله عز وجل " وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون الا الظن وإن هم إلا يخرصون "(١) .

" قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون "(٢) .

---

(١) الأنعام : ١١٦ .
(٢) التوبة : ٥١ .

" الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم ".(١)

وهكذا يتضح أن المؤمن الملتزم بدينه لايشعر بأى نوع من الاغتراب مهما كانت الظروف التي حوله ، مادام وثيق الصلة بالله ؛ لأن الإيمان يدفعه إلى تنمية دوافع الهدى ، والسيطرة على دوافع الهوى " وتحقيق التوازن بين مطالب الجسم والروح ليعيش الإنسان في قرب من ربه وسلام مع نفسه ، ووئام مع الناس فيسعد في الدنيا والأخرى " . (كمال موسى ، ١٩٨٨ ، ص ٣٤) .

وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء ".(٢)

وفسر الحديث بأن الغرباء هنا ليس الاغتراب بمعنى المفهوم المعاصر ، " وإنما الذين اغتربوا وابتعدوا عن الواقع الذى يناهض مبادئهم ، ويزيدون خيرا ، وايمانا وتقي ، إذا نقص الناس من ذلك ، وهم الناس الصالحون ، والذين يحبون أن يلتزموا بآداب وقيم الإسلام ، ويحبون سنة رسول اللهويعلمونها للناس .

وليس في غربة أهل الله ورسوله وحشة ، بل هم آنس العباد إذا استوحش الناس ، مثلهم في ذلك موسى عليه السلام - عندما خرج من مصر هاربا من فرعون وقومه وناجى ربه قائلا " يارب وحيد مريض غريب فناداه ربه قائلا :

" ياموسى الوحيد من ليس له مثلي أنيس ، والمريض من ليس له مثلي طبيب ، والغريب من ليس بيني وبينه معاملة ." (فتح الله خليف ، ١٩٧٩ ، ص ٨٤) .

---

(١) آل عمران : ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) أخرجه مسلم ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

ان الغرباء الذين ذكرهم الحديث الشريف ليسوا سلبيين ، بل هم إيجابيون في الحياة ، لأنهم رفضوا الاندماج مع المجتمعات الفاسدة ، ويذكر التاريخ موقف شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - حين ألقى به في سجن القلعة بدمشق ، حيث تمت محاولة لاخراجه ، مقابل أن يتخلى عن بعض آرائه فأبى وكان يقول :

" إنّ حبسي خلوة ، ونفيي سياحة ، وقتلي شهادة " .

فالمسلم الحق من يثبت على مبادئه مادامت صحيحة ، وموافقة لكتاب الله وسنة رسوله ولايخشى فى سبيل ذلك غضب مخلوق ، لأنه حينئذ في كنف الخالق الذى زوده برصيد ضخم من القيم العظيمة التي توجه سلوكه ، وتضبط سيره ، وتحذره من الانحراف والسلوك غير السوى .

فالدنيا مليئة بالمغريات ، التي تستهوى الانسان الضعيف في إيمانه فتجعله مغتربا عنها ، ولكن المؤمن القوى يتذكر قول الله عز وجل " **إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور** "(١) .

وقوله تعالى :

" **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى * وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** "(٢)

فالموازين عند المؤمن واضحة ، والمعايير ثابتة ، والقيم راسخة انطلاقا من حديث الرسول الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - " الحلال بين ، والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام ."(٣)

---

(١) الحديد : ٢٠ .
(٢) النازعات : ٣٧-٤١ .
(٣) أخرجه البخارى ، جـ ١ ، ص ٢٨ .

وهذا لايعني أن الإسلام يحرم التمتع بالحلال من أمور الدنيا ولكنه حرم الانغماس في الشهوات ، والتكالب على السلطة ، والتناطح على الجاه والتنافس على تكديس الأموال بأية طريقة مشروعة أو غير مشروعة والتبارى في تعمير الدور والقصور والتسابق على جمع حطام الدنيا ، فهذه كلها تشغل القلب عن ذكر الله وتجعل الانسان يغترب عن واقعه .

فالتمتع بالحلال الطيب أمر مرغوب يقول تعالى :

" قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ".(١)

وقال تعالى : " وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ".(٢)

فالإسلام دين يأخذ بفضيلة الوسط لا افراط ولا تفريط ، يدعو إلى الزهد في الدنيا أى القصد في الشهوات لا إلى الحرمان واعتزال الدنيا ومن فيها ومافيها . يدعو إلى التمتع بالحلال لا إلى الانهماك فيها ؛ لأن الإسلام قبل كل شيء وبعد كل شيء دين عملي اجتماعي واقعي .

وهكذا يتبين مما سبق أن هناك رؤية خاصة ومتميزة للاسلام في موضوع الاغتراب . وهذه الرؤية تتميز بالتالي :

- الاغتراب بالمعنى الاسلامي اغتراب عن الحياة الاجتماعية الزائفة .
- واغتراب عن النظام الاجتماعي الزائف وغير العادل .
- رفض التفسيرات التى وضعتها المذاهب الوضعية في تفسير الاغتراب .
- إن الايمان بالله يقضى على مظاهر الاغتراب .

وتأسيسا على ماسبق فانه يمكن الأخذ بالتعريف التالي للاغتراب :

---

(١) الأعراف : ٣٢ .

(٢) المائدة : ٨٨ .

كما أن المؤمن الملتزم يرفض أن يكون إمعة أو مسايرا لمجتمع فاسد ، أو جماعة مرجعية ضلت طريقها فهو ملتزم بحديث الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم :

" لايكن أحدكم امعة ، يقول أنا مع الناس ان أحسن الناس أحسنت وان أساءوا أسئت ، ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس فأحسنوا ، وإن أساءوا فاجتنبوا إساءتهم ".(١)

وهذه ميزة يتميز بها المسلم الحق عن غيره الذى يجارى مجتمعه الذى لايسير وفق القيم النابعة من العقيدة الاسلامية ، وهو حين يرفضها لايعد مغتربا في حين ترى المذاهب الوضعية أنه مغترب مادام أصبح غير قادر على المسايرة ولايخضع لضغوط الجماعة ولاينصاع لضغوطها ؛ لأنه ينحاز إلى ربه الذى خلق الكون وفق مبادىء الرحمة والحكمة والعدل حيث لاعبث ولاقسوة ولاظلم .

إن تعزيز الصلة بالخالق الذى لايصدر عنه إلا الخير تجعل الإنسان يشعر بالاطمئنان الداخلي الذى لايلوثه شيء من عالم المادة ، ويتغلب على معاناة التناقض مع محيطه ويصبر على مايتعرض له من أذى قال تعالى : " **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** " .(٢)

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام " عجبا لأمر المؤمن ، ان أمره كله خير ، وليس ذلك الا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ".(٣)

ويقول أيضا " من أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه جعل الله الغنى فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنياوهي راغمة ، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق شمله ، ولم ينل من الدنيا إلا ماقسم له ".(٤)

---

(١) رواه الترمذى ، جـ ٤ ، ص ٣٢٠ .
(٢) البقرة : ١٥٥ .
(٣) رواه مسلم ، جـ ٤ ، ص ٢٢٩٥ .
(٤) رواه الترمذى ، جـ ٤ ، ص ٥٥٤ .

" الاغتراب : انفصال الإنسان عن خالقه ، وانسلاخه عن القيم الدينيـــة والاجتماعية للإسلام والعجز عن تحديد هدف وجوده في الحياة ، الأمر الذى يجعله غير قادر على التوافق مع نفسه ومجتمعه ، مما يسبب له ضعف الانتماء إلى عقيدته ووطنه ، وشعوره بالعزلة الاجتماعية واللامعيارية واللامعنى والتشيؤ والعجز والتمرد ."

ثالثا : الاطار النظرى للصحة النفسية ورؤية الإسلام اليها

١ - أهم مدارس علم النفس التي تناولت الصحة النفسية :

هناك ارتباط وثيق بين الصحة النفسية وعلم النفس بشتى فروعه وتهدف جميعا الى دراسة الانسان دراسة علمية لفهم سلوكه في سوائه وانحرافه ، ووضع القوانين والنظريات والمبادىء التى تفسر سلوكه ، وتساعد على ضبطه والتحكم فيه ، والتنبؤ بما ينبغي عمله فى سبيل السمو بإنسانيته ، وفيما يلي أهم المدارس :

أ - نظرة مدرسة التحليل إلى الصحة النفسيـة :

تهتم هذه المدرسـة بدور الغرائز كمحرك أساسي في سلوك الفرد ، وترجع كل الاضطرابات النفسية ، وعدم التوافق الى الجنس ، واشباع غريزتين أساسيتين وهما : الليبيدو ، وغريزة التدمير .

" وقد اعتقد (فرويد ١٨٥٦ - ١٩٣٩) . أن الطاقة الجنسية هي المحرك لسلوك الفرد ، وأنه يمكن تفسير معظم جوانب السلوك على أساس أنها تعبير وإعلاء للدوافع الجنسية ، ويرى أن معظم العمليات النفسية يتم حدوثها دون أن يكون الفرد واعيا بها ؛ أى أنها عمليات لاشعورية ، ويعتبر ذلك مفهوم اللاشعور ، وهو بمثابة مخزن للغرائز ، والصراعات المؤلمة ، ومشاعر الذنب المختلفة ، وجميع مايهدد احترام الفرد لذاته ."

(عبد السلام عبد الغفار ، ١٩٨١ ، ص ٢٨) .

وتحصر هذه المدرسة محركات سلوك الإنسان في ثلاثة مكونات أساسية :

١ - الهو :

ويتضمن فيه الغرائز والطاقات ، التي تتمثل في دوافع الحياة إشباع الغرائز الجنسية ، والذى يطلق عليه مفهوم " اللبيدو " . وهناك دوافع الموت التى يتمثل في التحطيم والعدوانية ، ويعمل الهو على أساس مبدأ اللذة الذى يطالب بالإشباع الفورى للدوافع "البيولوجية" ، دون الالتفات إلى القيم والتقاليد التى تسود في المجتمع الذى يعيش في وسطه الفرد .

٢ - الأنا :

ويمثل الجانب الرقابي لتصرفات الفرد ، والذى يقرر مدى صواب السلوك أو خطئه ، ويعمل على ضبط الهو بالقيم الدينية والخلقية والاجتماعية ، والتي تجعله مراعيا لظروف المجتمع وواقعه .

٣ - الأنا العليا (١) :

وتحتوى على المبادىء والقيم التي يتربى عليها الانسان من خلال التنشئة الاجتماعية (٢) التي يمر بها في أثناء الحياة الطويلة ، الأمر الذى يجعل الفرد ينزع الى المثالية ، وبالتالي تعمل على كف الهو التي تجنح إلى إشباع الدوافع الجنسية والعدوانية .

" وترى مدرسة التحليل النفسي أن الصحة النفسية تتحدد على أساس مدى قدرة الأنا على احداث التوازن أو التوافق بين أجهزة الشخصية المختلفة ، والمطالب الاجتماعية لواقع الفرد أو على أساس مدى قدرة الأنا في الوصول إلى حل لما ينشأ من صراع بين أجهزته والواقع الذى يعيشه الفرد .

---

(١) Super-Ego

(٢) Socialization

وتذهب المدرسة إلى أن الإنسان لايستطيع أن يصل إلى الصحة النفسية بسبب الصراع الدائم والمستمر بين الهي التي تظل تلح لازالة التوتر الذى ينشأ عن رغبة الغرائز في البحثعن إشباع ، فتصطدم بالواقع الاجتماعي بمعاييره وقوانينه الذى استقر عليها . هذا فضلا عن وجود الأنا الأعلى التى تقوم بالتوفيق بين ذلك كله ، حتى تستمتع الشخصية بقدر مناسب من الاتزان ." (نبيه اسماعيل ، ١٩٨٠ ، ص ٢٠) .

ويتضح مما سبق أن الصحة النفسية متوقفة على نجاح قوة الأنا في تحقيق التوازن بين الهو والأنا الأعلى . ويرى " فرويد " أن هذا مستحيل ، لأن الانسان في نظره شرير ، ولايقبل القيم والقواعد التي وضعها المجتمع وهو بهذا لم يهتم بأهمية العوامل البيئية التي تؤثر في حياة الفرد .

كما أن الحضارة نفسها - من وجهة نظر فرويد - ناشئة من الغريزة الجنسية ، لأن الإنسانية الأولى قتلت أباها ، حيث طمع الأبناء في الاستيلاء على أمهم والاستئثار بها دون أبيهم ، لأنهم يحسون نحوها بشبق الجنس ، فلما قتلوه وجدوا أنهم سيدخلون في معركة عنيفة لتقرير غلبة أحدهم واستيلائه على أمه ؛ لذلك كبت الأولاد شعورهم الشهوى نحو أمهم ، ومن هذا الكبت نشأت الحضارة .

وحين قتلوا أباهم بدافع الصراع الجنسي نشأ الدين ، فقد أحسوا بالندم على فعلتهم فقدسوا ذكرى الوالد وجسموه في حيوان فعبدوه ، ثم ظلت الفكرة ترتقي حتى عبدوا الها ما ، وذلك قبل أن تنزل الأديان ، ولكن نزول الأديان من السماء لم يخرجها عن نطاق الجنس فقد أراد أن يقتل أباه ، ثم جعل نفسه الها مكانه ، كما قتل الولد أباه ليأخذ مكانه مع الأم " (محمد قطب ، ١٩٨٣ ، ص ص ١٦٧ ، ١٦٨) .

ويرى في الدين أيضا أمرا خطيرا ، لأن البحث فيما وراء الطبيعة أمر غير ذى جدوى وآفة عصابية وأنه نوع من المخدر الذى يعوق الممارسات الحرة للذكاء ، ومسألة يجب على الإنسان أن يتخلى عنها .

وقد طور " فرويد " وجهة نظره حيث جعل الدين آفة عصابية شاملة عندما قارن الطقوس والمذاهب الدينية بالأعراض الجبرية التسلطية التي تنتاب المرض . ويمكن للمرء أن يتجرأ أو يعتبر العصاب الوسواسي القهرى نظيرا مرضيا لتكوين الدين ، كما يمكن وصف هذا العصاب كنظام ديني خاص . وأن مفهوم الله هو صنع الوهم الانساني (مالك البدرى ، ١٩٨٩ ، ص ص ٤٠ ، ٤١) .

ويذكر عن " فرويد كتابته لصديق له وهو " بنزوانجر " قائلا لقد وجدت مكانا للأديان لقد وضعتها ضمن مجموعة الأمراض النفسية للإنسان ." (عبد السلام عبد الغفار ، ١٩٧٣ ، ص ٣٣) .

وهكذا يتضح أن النظرة " الفرويدية " إلى الانسان نظرة تشاؤمية وبالتالي استحالة وجود الصحة النفسية بسبب الصراع بين رغبات الفرد ورغبات المجتمع ، حتى في حالة ماتلجأ " الأنا " إلى بعض الحيل التي يطلق عليها الحيل الدفاعية ، والتي تعد محاولات لاشعورية لاعطائها بعض الراحة ، وتجنيبها الشعور بالمشاعر المؤلمة .

" ولايعتبر استخدام هذه الحيل من الصحة النفسية في شيء ، إذ إنها تقوم على تشويه الحقائق والتمويه على " الأنا " وهي حيل غش وخداع الأنا تخدع نفسها لاشعوريا ، واستخدام الفرد لها واستمراره في هذا الاستخدام يؤثر تأثيرا سيئا في تعامله مع الحياة التي يعيش فيها . (عبد السلام عبد الغفار ، ١٩٨١ ، ص ٣١) .

هذه الآراء " الفرويدية " للإنسان وصحته النفسية ، وجدت الكثير من النقد . فقد حدثت حركة انشقاق على " فرويد " وطرأت تعديلات عليها ، ومن هذه الانتقادات ماذكره " كولمان " وهي : (عبد السلام عبد الغفار ، ١٩٧٣ ، ص ١٥) .

١ - اسرافها في التأكيد على أهمية الدافع الجنسي ، فالدافع الجنسي مهم غير أنه بتأكيده بهذه الصورة فيه اسراف .

٢ - النظرة التشاؤمية المسرفة في التشاؤم عن طبيعة الانسان .

٣ - المغالاة في أهمية الدور الذى يقوم به اللاشعور .

٤ - إهمال " فرويد " لدوافع الانسان نحو تحقيق الذات وتأكيدها .

٥ - تجاهله للدور المهم الذى تقوم به العوامل الثقافية في تشكيل سلوك الإنسان .

٦ - نقص الدلائل " الامبريقية " التي تدعم ماذهب اليه " فرويد " من استنتاجات .

أما (محمد عثمان نجاتي ، ١٩٩٠) فيرى أن اهتمام " فرويد " بالغريزة الجنسية لدراسة الأمراض النفسية ، يرجع في الأغلب الى ثقافة العصر الذى عاش فيه والتي كانت تنظر إلى الجنس نظرة استقذار ، وترى أنه يجدر بالإنسان الفاضل أن يقاوم رغباته الجنسية وأن يكبتها وكان لذلك أثره في توجيه اهتمام " فرويد " بالجنس بطريقة مبالغ فيها إلى درجة كبيرة بحيث فسر المرض النفسي على أساسه " (ص ٢١) .

ويتهم بعض الباحثين " الفرويديين " بأنها قامت على أساس " اكلينيكي " غير تجريبي ،يستهدف مساعدة المريض ، وليس تفسير ماهية مرضه ، فهي ليست علما ، أو هي تفتقر على الاقل الى أساليب القياس الرياضية التي تتميز بها العلوم الأخرى ، وأن التحليل " السيكولوجي " عند " فرويد " وفهمه للنفس الانسانية أقرب الى الفلسفة منه إلى العلوم .

ويؤكد " السلوكيون " وعلماء الوراثة على أن " فرويد " تجاهل تاما العوامل البيئية والوراثية ، التى قد تؤثر من دون شك في سلوك الانسان " (أحمد عكاشة ، د.ت ، ص ٧٩) .

ولم يقتصر نقد نظرية التحليل النفسي من خارج المدرسة ، بل حدثت حركة انشقاق على " فرويد " من داخل المدرسة على يد زملائه وتلاميذه والذين أطلق عليهم " الفرويديون الجدد " .

فقد أسس (أدلر Adler ١٨٧٠ - ١٩٣٧) . مدرسته المعروفة باسم علم النفس الفردى ، التى ركزت على الصدمات النفسية والمؤثرات الثقافية والاجتماعية ، وأدخل

مفاهيم مثل أسلوب الحياة ، وعقدة النقص ، واهتم في العلاج بالتخلص من عقدة النقص وتعديل أسلوب الحياة .

وأسس (يونج Yung ، ١٨٧٥ - ١٩٦١) مدرسة علم التحليل النفسي وقدم نظرية الطاقة النفسية ، واهتم بالدين والمسائل الروحية واستخدم طريقة التداعي الحر ، وتداعي الكلمات ، وأدخل مفاهيم مثل اللاشعور الشخصي واللاشعور الجمعي ، والنماذج الأصلية وحدد الأنماط النفسية المعروفة (الانبساط والانطواء) (حامد زهران ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٩) .

ب - رؤية المدرسة السلوكية الى الصحة النفسية :

تعتمد هذه المدرسة على مايمكن أن يلاحظ في سلوك الإنسان وإخضاعه للتجريب والضبط العلمي ، حتى يكون قريبا من العلوم " البيولوجية " ؛ وذلك حتى يمكن ملاحظته بصورة مباشرة في ضوء المثيرات التي تثيره ، والعوامل التي تؤدى إلى تدعيمه .

كما أن المدرسة السلوكية تركز على الحتمية النفسية التى تتمثل في وجود علاقة بين المثير[١] الذى يتعرض له الإنسان ، والتنبؤ باستجابته[٢] ، كما تهتم بالعوامل البيئية التي يعيش في وسطها .

وهي بهذه الرؤية تخالف مدرسة التحليل النفسي التي ركزت على الغرائز وجعلتها العامل الرئيسي والأساسي في تكوين الشخصية ، وتقوم على التداعي الحر وتحليل الأحلام .

" وترى المدرسة السلوكية أن الانسان إذا أراد تكوين قيمه وأخلاقياتـــه، فعليه أن يكونها بالأسلوب نفسه الذى يكون به مهاراته التعليمية وخبراته المختلفة . ومن هنا فإن القيمة التي لها معنى هي التي لها نتاج محسوس وملموس ، ولعل ذلك يوضح الاتجاه النفعي ، حيث اعتمدت على مايسمى بالقيمة الفورية[٣] والتى عبروا عنها بمقولة " ان الفكرة الصائبة تؤيدها نتائجها الفورية " (سيد صبحي ، ١٩٨٧ ، ص ٤٤) .

---

(١) Stimules (٢) Response (٣) Cash value

وتركز النظرية السلوكية في علم النفس على عملية التعلم واهتمامه بالبيئة التي لها دور كبير في اكساب الإنسان السلوكيات المطلوبة والمرغوبة ويتمثل ذلك في مقولة " واطسن " الشهيرة " . :

" أعطوني اثنى عشر طفلا أصحاء سليمي التكوين ، وسأضمن لكم تدريب أيٍ منهم لأن يصبح إخصائيا في أى مجال تختارونه سواء الطب أو المحاماة أو الفنون ، وإذا أردتم تدريب أحدهم على الشحاذة فسأضمن لكم ذلك " .

من هنا فان الصحة النفسية في المدرسة السلوكية تتمثل في اكتساب الفرد العادات المناسبة أو الملائمة التي تساعده على مواجهة المواقف الصعبة وحسم الصراع واتخاذ القرار المناسب الذى يمكنه من حسن التعامل مع الآخرين بما يحقق له حياة مطمئنة في المجتمع الذى يعيش فيه وينتمي اليه ." (نبيه اسماعيل ، ١٩٨٠ ، ص ٢٠) .

" فالعادات المناسبة هي التي تتناسب مع البيئة التي يعيش فيها الفرد أو هي العادات التي يقبلها أفراد المجتمع والتي استحسنوا اكسابهم لأبنائهم فاذا ماكتسب الفرد عادات تتناسب مع ثقافة مجتمعه وتساعده على أن يحيا حياة فعالة ناجحة مع الآخرين فهو ذو صحة نفسية . أما إذا فشل في اكتساب هذه العادات ، أو إذا اكتسب عادات لاتتناسب مع مااصطلح عليه المجتمعات من عادات ، فهو في صحة نفسية سيئة أو هو مضطرب انفعاليا . وهكذا فالمحك المستخدم هنا للحكم على صحة الفرد النفسية محك اجتماعي " (عبد السلام عبد الغفار ، ١٩٨١ ، ص ٤١) .

" وواضح مما سبق أن هذه المدرسة ، وتبعا لاهتمامها تركز على ماهو منظور ومحسوس ، غافلة أو متجاهلة الجوانب الروحية كمحك في تحريك السلوك الانساني على اعتبار أن هذا الجانب من الصعب ضبطه ضبطا علميا ، فلا مكان للدين والقيم المنبثقة عنه كشرط أساسي للصحة النفسية وقد تم نقد هذه المدرسة من قبل " كولمان " وتمثل النقد في التالي :

١ - رفض السلوكيون أن يأخذوا في اعتبارهم خبرات الانسان الذاتية وهي ذات معنى مهم بالنسبة للفرد ذاته .

٢ - اعتمادهم الكبير على التجريب في مجال الحيوان ، وقد يكون صعوبة في تطبيق نتائج ماوصلوا إليه في مجال الحيوان على سلوك الإنسان .

٣ - اهتمامهم بدراسة جزئيات سلوكية بسيطة أو ارتباطات بين مثيرات واستجابات بدلا من دراسة نماذج سلوكية إنسانية أكثر تعقيدا .

٤ - تجاهلهم لمشكلة القيم ، وماينبغي أن يكون عليه الإنسان وماينبغي أن تكون عليه حياته " . (عبد السلام عبد الغفار ، ١٩٧٣ ، ص ٢٨) .

جـ - <u>رؤية المدرسة الإنسانية الى الصحة النفسية</u> :

رفضت هذه المدرسة اختزال السلوك في عمليات " فسيوكيميائية " ولم تعترف بدراسة جزئيات من سلوك الانسان المتمثل في المثير والاستجابة ، وماتؤدى اليه من تفسير لسلوك الانسان ، كما رفضت كل المفاهيم التي جاءت في مدرسة التحليل النفسي وبنيت هذه النظرية على عدد من المسلمات وهي :

١ - خيرية الإنسان التي تناقض العدوانية والأنانية عند " فرويد " واعتبارها أعراضا مرضية نتيجة لما يجده من إحباط في مجتمعه .

٢ - حرية الإنسان فى القرارات التي يتخذها ، الأمر الذى يجعله يختار ماينا سبه من نشاط يوجه سلوكه .

٣ - وجود هدف يسعى الفرد إلى تحقيقه مثل تحقيق الذات .

٤ - التركيز على الخبرة التي يكتسبها الفرد والتي تفسر سلوكه .

٥ - الحكم على سلوك الفرد من خلال الدراسة على الأصحاء من الناس ، وليس من خلال المرضى كما فعل " فرويد " .

ويتضح مما سبق أن أصحاب هذا الاتجاه " لايرفضون وجود غرائز لدى الإنسان كما لاينكرون هذا الاتصال العصبي بين المثيرات الخارجية ، ومايترتب عليها من استجابات

غير أن هذا الاتجاه ينظر الى الإنسان على أساس أنه كيان يعمل ككل ، وأن الانسان في سعيه المستمر ينشد تحقيق الذات ، والسعي يمر بمراحل متدرجة حسب التنظيم الهرمي لحاجات الانسان عند " ماسلو " وذلك لكي تتحقق الصحة النفسية . (سيد صبحي ، ١٩٨٧ ، ص ٤٥) .

وهكذا يمكن القول بأن أنصار المذهب الإنساني في علم النفس يرون أن الصحة النفسية تتحدد في ضوء مدى قدرة الفرد في تحقيق إنسانيته تحقيقا كاملا من خلال اهتمامه بالقيم ، وحرية الاختيار والمسئولية والعلاقات الاجتماعية ، وتحقيق الذات ، والحب ، والابتكار والنضج الشخصي ، وهي جميعا مظاهر وأبعاد يمكن من خلالها تحقيق الوجود الانساني . وهم بهذا يدعون إلى احترام الإنسان وتقديره ، وإعطائه مكانته وأهميته في الحياة واتاحة الفرصة أمامه حتى ينمو على نحو يضمن له الإسهام في خدمة بني جنسه على أساس صحيح ." (نبيه اسماعيل ، ١٩٨٠ ، ص ص ٢٢ ، ٢٣) .

وتبين مما سبق أن رؤية المذهب الإنساني في علم النفس تختلف عن تلك التي تقوم عليها النظريات التقليدية إلى الصحة النفسية ، حيث تقدم نظرة متفائلة عن الإنسان وحياته ومستقبله ، ويرى أن الانسان كائن حي خير بطبيعته ، وان أتى بِشَرٍّ يكون نتيجة رد فعل لما يواجهه من صعوبات وتحديات واحباطات .

فالفرد في نظر هذا المذهب حر يختار من الحياة الأسلوب الذى يتناسب معه ، والذى ينفرد به عن غيره،وحرية الإنسان هنا محدودة فهناك مواقف لايستطيع فيها الاختيار والانسان دائما في نمو وتطور يدفعه الى نشاطه الدافع إلى تحقيق الذات .

والإنسان دائما في سعي لمعرفة معنى لحياته ، ومعنى لوجوده . وقد يكون هذا المعنى فى صورة هدف يسعى اليه ، أو قيم يلتزم بها ؛ حيث إن للقيم في حياة الأفراد دورا كبيرا ، وتحتل مرتبة أساسية في التنظيم الدافعي لهم . والفرد لن يشعر بمعنى الحياة اذا لم يكن قادرا على تحقيق أهدافه أو حرا في اختيار القيم التي تتناسب معه ، والتي يلتزم بها فيما بعد " (عبد السلام عبد الغفار ، ١٩٨١ ،ص ٥١).

ولكن هذا المذهب يتجاهل الدين . وحين تحدث عن القيم فقد ربطها بمصلحة المجتمع ومصلحته بغض النظر عن مصادرها ومعاييرها فالمهم أن يحقق الانسان ذاته وعليه أن يختار ماييناسبه وما يجعله سعيدا في هذه الحياة .

كما يؤكد " ماسلو " أن من محددات الصحة النفسية أن يكون الفرد مرتبطا بمجموعة من القيم والتي منها صدق الفرد مع نفسه ومع الآخرين وأن تكون لديه الشجاعة في التعبير عما يراه صوابا وأن يتفانى فى أداء العمل الذى يجب أن يؤديه ، وأن يكتشف من هو ! وماالذى يريده ،وماالذى يحبه ، وأن يعرف ماهو الخير له ، وأن يتقبل ذلك جميعا دون اللجوء إلى حيل دفاعية يقصد بها تشويه الحقيقة ." (عبدالسلام عبد الغفار ، ١٩٨١ ، ص ٢٤) .

فالصحة النفسية في هذه المدرسة تتمثل في مدى تحقيق الفرد لانسانيته تحقيقا كاملا ، وبمعنى آخر هي الحالة النفسية التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يصل الى مستوى متكامل من الإنسانية .

أما " اريك فروم From, E ، ١٩٨٩) فيرى الصحة النفسية من خلال فهم عميق للنفس الانسانية ، الذى ينبني على تحليل حاجات الانسان النابعة من ظروف وجوده وهذه الحاجات هي :

- الحاجة إلى التعالي أو التجاوز .
- الحاجة إلى الارتباط بالجذور .
- الحاجة إلى الهوية .
- الحاجة إلى اطار توجيهي .

وهذه الحاجات إنسانية وموضوعية فهي لاتوجد لدى الحيوان ولم يخلقها المجتمع ؛ وإنما أصبحت جزءا من طبيعة الانسان . وهو بهذا يرفض نظرية الغرائز عند " فرويد " باعتبار أن الغرائز لدى الإنسان تختلف عن الغرائز لدى الحيوان ، وهو بالتالي يرفض التفسير " الفرويدى " للعصاب بوصفه ناتجا عن الصراع بين الغرائز والأنا ، أى متطلبات الواقع ، وإنما ينشأ عن صراع من نوع آخر كالحافز الى الخضوع اللامتناهي للسلطة ، والنهم اليها ، والقهر والاجبار على الانصياع ، وهو ينسب أسباب هذه الأعراض العصابية إلى عوامل ثقافية واجتماعية ." (ص ١٠) .

٢ - <u>الرؤية الاسلامية إلى الصحة النفسية</u> :

إنّ نظرة فاحصة إلى النظريات الوضعية ، التي فسرت سلوك الانسان نجدها متحيزة إلى التفسير المادى ، وكل باحث فسره في ضوء خلفيته الفكرية والثقافية ؛ فقد فسره " فرويد " بالجنس ، و" أدلر " بالتفوق ، و " يونج " بمركب النقص ، والتجريبيون بالنشاط الجسماني ، والشيوعيون بحتمية المادة ، وعلماء الاجتماع با " الأنومي " .

فغالبية دراسات علم النفس في الغرب تتأثر بالاتجاه المادى . وحين يتحدثون عن الصحة النفسية " فإنهم يذكرون كثيرا من العوامل التي تتعلق بقدرة الفرد ، وفاعليته في القيام بشئون حياته الواقعية ، والشخصية الاجتماعية ، وإشباع حاجاته المادية والدنيوية ولكنهم لايواجهون أي اهتمام إلى تأثير النواحي الروحية في سلوك الانسان وصحته

النفسية ويغفلون تأثير الايمان بالله تعالى في التخلص من القلق ، وبث الشعور بالأمن ، والطمأنينة في النفس . " (محمد عثمان نجاتي ، ١٩٩٠ ، ص ٣٩) .

كما أن المدرسة التحليلية في علم النفس اعتبرت الانسان شريرا ، وغرائزه هي التي تحركه وتوجهه ، وتسيطر عليه رغبات حيوانية لايقبلها المجتمع ، واعتبرت قيم المجتمع وأخلاقه لاتناسب طبيعة الانسان ، مما يعني أن الصراع بين الأنا الأعلى والهو ، وبين الفرد ومجتمعه صراع حتمي ومستمر ، ومهمة الأنا صعبة في حل هذا الصراع .

وهذه النظرية وغيرها التي تؤمن بحتمية الصراع غير صحيحة ، لأنها اعتبرت الإنسان شريرا ، وأهملت مافيه من خير ، فقد خلقه الله في أحسن تقويم ، وجعله مهيأ لتقبل القيم والأخلاق ، وقواعد السلوك الاجتماعي .

فالصراع بين الفرد والمجتمع ليس صراعا حتميا ، لأن الإنسان عنده استعداد للخضوع والالتزام بقيم المجتمع التي تهذب شهواته ، وترتقي بنفسه ، وتسمو بسلوكياتها . فالنفس الانسانية قابلة للتعلم والتزكية فهي كما قال الشاعر :

النفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

فبالتربية الصالحة تسمو النفس فتعيش في سلام داخلي ووئام خارجي ، ويتحقق لها التوازن الذى تنشده الصحة النفسية ." (كمال مرسي ، ١٩٨٨ ، ص ٨٩) .

أما المدرسة السلوكية فقد اعتبرت الانسان صفحة بيضاء ، تشكله البيئة التي يعيش فيها . وقد اقتربت المدرسة الانسانية من نظرة الاسلام للانسان حيث اعتبرته خيرا ، ولكنها أرجعت صحته النفسية إلى مدى تحقيق ذاته .

فأزمة البشرية تتجلى في هذه النفس الحائرة التي ظن علماء النفس أن المادة تستطيع أن توفر لها الطمأنينة والسعادة . وهذه النظرة الضيقة هي التي أوجدت الحيرة الهائلة التي تهدد الانسان المعاصر بالتمزق والضياع .

فعلم النفس في الغرب الذى بنى على نظرية التطور ، ينطوى على جهل للنفس المؤمنة ، التي ارتفعت بايمانها إلى فلك نوراني لايعرفه علم النفس الغربي ، وقد بدت ضخامة الغلطة التي يرتكبها كل تفسير للنفس الانسانية يأخذ في حسابه جانبا واحدا من كيان الانسان الذى يتمثل في التفسير الحيواني للانساني .

" والملاحظ أن علم النفس وجميع العلوم الانسانية الأخرى التي تدرس في جامعات البلاد الاسلامية ، هي علوم غربية في فلسفتها ووجهتها . والذى أسس نظرياتها علماء غربيون غير مسلمين على أساس نتائج بحوث ودراسات أجريت في مجتمعات غربية غير مسلمة لها أساليبها الخاصة في الحياة والتفكير ، ولها فلسفتها الخاصة في طبيعة الحياة ، وفي طبيعة الانسان ورسالته في الحياة وغايته منها ، ولها معاييرها الخاصة ، ولها نظرتها السلبية إلى الدين في حياة الانسان ." (محمد عثمان نجاتي ، ١٩٩٠ ،ص ٢١)

وهذه النظريات تصطدم مع معتقداتنا وقيمنا ، خاصة حينما نجد " فرويد " يفسر كل سلوك الانسان بدافع الجنس بدءا من حركات الطفل الصغير الرضيع الذى يرضع ويلتصق بأمه ، حتى حين يتبرز ، كل هذا بدافع الجنس .

" ومن هنا أعطى " فرويد " صورة مزورة للنفس الانسانية خلاصتها أن الكيان الحقيقي للانسان هو الطاقة البهيمية البحتة ، وأن كل تعديل لهذه الطاقة ليس داخلا في هذا الكيان الحقيقي ، وانما هو مفروض عليه من الخارج ، مما يؤثر ذلك على صحته النفسية بالسلب .

وحين راح تلميذاه " أدلر " و " يونج " يحاولان تخفيف انحراف أستاذهما ، وشرهه الجنسي بوضع قاعدة أخرى للحياة الانسانية غير قاعدة الجنس فقال " أدلر " ان الدافع الحيوى للفرد هو شعوره بالتفوق في ناحية معينة ازاء الجماعة . وقال " يونج " ان هذا الدافع هو الشعور بالنقص ومحاولة التعويض .

وكان كلاهما يضع أصبعه عن حقيقة جزئية في النفس الانسانية ، ولكن كلتا الحقيقتين ضاعت ولم يؤت أكلها ، لأنهما أصرا على تفسير النفس كلها بهذه الجزئية

الصغـــيرة التى لاتفسر وحدها شيئا في حقيقـة الأمر ." (محمـــد قطب ، ١٩٨٣ ، ص ص ٢٠ ، ٢١) .

ويقدم عالم النفس (وليم جيمس William James) وجهة نظر مخالفة " لفرويد) وتلاميذه ، حيث يقرر أن الايمان الذى لابد من توافره لمعاونة المرء على العيش . والحياة السعيدة التى تعكس الصحة النفسية حيث يقول :

" ان بيننا وبين الله رابطة لاتنفصم ، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه تعالى تحققت كل أمنياتنا وآمالنا . فالرجل المتدين حقا عصي على القلق ، محتفـظ أبـــدا باتزانه مستعد دائما لمواجهة ماعسى أن تأتي به الأيام من صروف " .

ويقول " كارل يونج Carl Yung " المحلل النفسي " استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضر ، وعالجت مئات المرضى ، فلم أجد مريضا واحدا من مرضاى الذين كانوا في المنتصف الثاني من عمرهم ، أى جاوزوا سن الخامسةوالثلاثين ، من لم تكن مشكلته في أساسها هي افتقاره الى وجهة نظر دينية في الحياة ، وأستطيع أن أقول : إن كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض ؛ لأنه فقد ذلك الشيء الذى تمنحه الأديان القائمة في كل عصر لأتباعها ، وإنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقة إلا بعد أن استعاد نظرتـه الدينيـة . ويقول " بريل Brill المحلل النفسي : إن المرء المتدين حقا لايعاني قط مرضا نفسيا .

وذكر " هنرى لينك Henry Link " العالم النفسي الأمريكي في كتابه (العودة إلى الايمان) أنه وجد نتيجة خبرته الطويلة في تطبيق الاختبارات النفسية على العمال في عملية الاختيار المهني والتوجيه المهني أن الأشخاص المتدينين الذين يترددون على دور العبادة يتمتعون بشخصية أقوى وأفضل ممن لادين لهم أو لايقومون بأية عبادة .

ويشير المؤرخ" أرنولد توينبى A, Toynbee " إلى أن الأزمة التي يعاني منها الأوربيون في العصر الحديث إنما ترجع في أساسها إلى الفقر الروحي ، وأن العلاج الوحيد لهذا التمزق الذين يعانون منه هو الرجوع إلى الدين ." (محمد عثمان نجاتي ، ١٩٧٧ ، ص ٢٤٨) .

وفي مجال علم النفس والصحة النفسية يذهب الى الاتجاه نفسه " اريك فروم " حين انتقد مناهج علم النفس التي اهتمت في أغلب الأحيان بنواح سطحية من سلوك الانسان ، وأغفلت مشكلات الانسانية المهمة مثل قيمه العليا وجوانبه الروحية .

ويقرر بأن الاحصاءات تدل على أن أكثر البلدان الأوربية " ديمقراطية " وأمنا ورفاهية ، وأن أمريكا وهي أكثر بلدان العالم انتعاشا من الناحية الاقتصادية هي البلاد التي تزداد فيها نسبة الاضطرابات العقلية ؛ فبالرغم من أن هذه البلاد تقدمت اجتماعيا واقتصاديا وتوفرت فيها أسباب الراحة واستقر فيها الأمن والحكـــم " الديموقراطي " فان ميزان العقل فيه اختلال . فرغد العيش يفي بحاجات الانسان المادية ، ولكنه يبعث في نفوسنا الملل فيدفع الانسان إلى إدمان الشراب أو إلى الانتحار للتخلص من حالة الضجر التي لاتطاق ، وهذا يعنى أن المدنية تقتصر على بث الطمأنينة في النفوس ولاتفي ببعض حاجات الانسان العميقة الخفية " (اريك فروم Fromm,E ، ١٩٦٠ ، ص ١٠) التي تتمثل في الاهتمام بالجانب الروحي في الانسان .

فالجانب الروحي أو المعنوى للانسان الذى أهملته نظريات علم النفس التي نشأت في أوروبا يعد مؤشرا مهما وسببا في وجود صحة نفسية ، وتغذيـة هذا الجانب لايوجد في نظريات علم النفس المتضاربة والمتناقضة ، وإنما يوجد في الدين وماينبثق عنه من قيم توجه السلوك ، وتحدد بدقة متناهية معنى الحياة ، وتوضح الهدف منها لكي يتحقق التوافق النفسي والاجتماعي للإنسان . وهذا هو جوهر الصحة النفسية ، " لأن إهمال علم النفس الحديث للبعد الروحي في الانسان - وهو بعد أساسي يتعذر فهم الانسان بدونه - أدى إلى قصور واضح في فهم علماء النفس للانسان ومعرفة العوامل

المحددة للشخصية السوية وغير السوية ، ونأى بهم عن الاهتداء إلى مفهوم دقيق للصحة النفسية ، ولم يوصلهم إلى الطريق المثلى في العلاج النفسي لاضطرابات الشخصية .

وقد أشار " أريك فروم " الى هذا القصور في معارف علم النفس فقال : إن علم النفس الحديث يحاكي العلوم الطبيعية والأساليب المعملية في الوزن والحساب ، ويعالج كل شيء في الإنسان عدا الروح ، ووقف عند فهم مظاهر الإنسان التي يمكن فحصها في المعمل ، وزعم أن الشعور وأحكام القيمة ومعرفة الخير والشر تصورات " ميتافيزيقية " تقع خارج مشكلات علم النفس ، وانصب اهتمامه في أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمي مزعوم بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الانسان المهمة . وهكذا أصبح علم النفس علما يفتقر الى أحد جانبيه الرئيسيين وهو الروح ، وأخذ يهتم با " لميكانزمات " وردود الأفعال والغرائز دون الاهتمام بدراسة الظواهر الإنسانية المميزة أشد التميز للانسان مثل الحب والعقل والشعور والقيم ." (كمال مرسي ، ١٩٨٨ ، ص ص ٤٤ ، ٤٥) .

ومن أجل تأكيد وتأصيل الجانب الروحي أو البعد المعنوى برزت جهود خلاقة لعلماء وباحثين مسلمين (١) في علم النفس هادفة وضع أسس قوية لعلم النفس والصحة النفسية التي تقوم على أساس التوازن بين الجانبين المادى والمعنوى .

وهذا ماتراه احدى الدراسات الجادة في علم النفس ، والتي أدخلت الجانب الروحي في تفسير سلوك الانسان ، وذلك من خلال مبادىء أساسية والتي تتمثل في :

---

(١) منهم على سبيل المثال لا الحصر : الامام الغزالي (١٩٦٧) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (١٩٨٥) ، ابن مسكويه (١٩٨٥) ، ابن حزم (١٩٦٠) . ومن المحدثين محمد عثمان نجاتي (١٩٨٧) ومحمد عثمان نجاتي (١٩٨٩) وعبد السلام عبد الغفار (١٩٧٣) وسيد عثمان (١٩٧٩) وسيد عثمان (١٩٨٦) وكمال ابراهيم مرسي (١٩٨٨) وعبد الحليم محمود السيد (١٩٨٩) وغيرهم .

١ - وجود تصور مناسب لطبيعة الانسان ، ومايؤثر في حياته من عوامل ومايدفعه من سلوك .

٢ - توفير المعلومات والبيانات عن واقع من عاشوا حياتهم أو يعيشونها آمنين راضين عنها وبها ، لو خيروا أن يعيشوها من جديد لاختاروا ماعاشوه أو يعيشونه ، لأنهم عاشوا وجودهم كما يود الانسان أن يعيش هذا الوجود .

٣ - صعوبة نقل نموذج يوضع عن طبيعة الانسان في ثقافة معينة إلى ثقافة أخرى ، فالعوامل الثقافية التي نشأ فيها ، ويعيش في ظلها توجه اهتماماته ، وتؤثر فيما يدركه من جوانب في طبيعة الانسان .

٤ - رفض التصور " البيولوجي " لتفسير حياة الانسان فقط ، لأن في هذا اغفالا لأهم مايتصف به الانسان ويميزه عن غيره من الكائنات الحية .

٥ - وجود صفات معينة تميز الانسان عن غيره من المخلوقات ومنها :

أ - الانسان مزود بتكوين عقلي معين الذى به يخطط لحياته . وهذا التخطيط عملية عقلية تقوم على أساس تذكر لما يحدث في الحاضر ، وتصور لما قد يحدث في المستقبل من احتمالات . والإنسان هو الوحيد الذى يستطيع مراجعة نفسه ومحاسبتها . وقد يقبل الإنسان ذاته وقد يرفضها .

وللإنسان قدرة فريدة على أن يسمو فوق وجوده " البيولوجي " وأن يلزم نفسه بنظام معين من القيم يدفعه ويحدد له سلوكه ويرسم له أسلوبه في الحياة ، وهو قادر على تحمل الآلام والنضال والتضحية بالحياة نفسها في سبيل قيمه ومبادئه وأهدافه .

ب - حرية الاختيار ، فالإنسان له ارادة وهي قوة منظمة ودائمة الدفع لسلوكه . ويدرك الانسان أنه حر في اختياره وأنه مسئول عما يترتب على اختياره من آثار ، ولديه القدرة على تحمل مسئولية مايقوم به من أعمال .

وهذه المبادىء والصفات الإنسانية، هي التي أهملتها معظم النظريات القائمة . وترتب على إهمالها تشويه ماقدمته تلك النظريات عن طبيعة الانسان .

وقد ساق عبد السلام عبد الغفار مثلين لكي يبين خطأ تلك النظريات حيث يقول :

" دعونا نتساءل كيف يمكن " للفرويدية " على سبيل المثال أن تفسر سلوك من ألقي على رمال مكة الساخنة (١) ، والصخرة على صدره وعندما يطلب منه معذبوه أن يكفر لكي ينجو من العذاب ، لاتنبس شفتاه إلا بكلمة أحد أحد ! هل يمكن القول بأن غريزة الموت قد دفعته الى مثل هذا السلوك ..؟ أم أن هناك من الدوافع مايسمو على دوافع وغرائز " الفرويديين " . ؟

وكيف يمكن للسلوكية - وعلى سبيل المثال أيضا - أن تقدم تفسيرا معقولا أو مقبولا لسلوك ذلك العربي (٢) الذى سأل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في احدى الغزوات عما بينه وبين الجنة .. ؟ وكانت الاجابة الكريمة بما معناه " أن تقوم لتقاتل وتقتل فتدخل الجنة ، فرمى العربي بتمرات كانت في راحته وصاح وماحاجتي الى هذه التمرات وقام وقاتل وقُتِل .

هل يمكن تفسير هذا السلوك على أنه وليد احباطات وصراعات نفسية ؟ وهل يمكن تفسير هذا السلوك في ضوء مفاهيم السلوكيين ؟

اجابتنا بالنفي ! اذ لاتستطيع هذه النظريات أن تقدم تفسيرا مناسبا أو معقولا لهذه النماذج من السلوك ، إما لأن تلك النظريات قد غفلت عن هذا الجانب الايجابي في شخصية الإنسان أو أنها تغافلت عنه لصعوبة اخضاعه لتجريب معملي .

ولهذا يرى " فرانكل " أنه على الرغم مما كتب في علم النفس تبقى الحقيقة وهي أن من أهم صفات الانسان قدرته على السمو والالتزام بقيم ومبادىء ومثل ، والتفاني فيما

---

(١) هو بلال - رضي الله عنه -

(٢) هو عمرو بن حمام الذى استشهد في معركة بدر الكبرى .

يلتزم به والنضال والتضحية في سبيل مايلتزم به حتى وإن تطلب الأمر أن يضحي الانسان بوجوده المادى في سبيل أن تبقى قيمه ومثله .

وهو بهذا يرفض (عبد السلام عبد الغفار) أحدث النظريات التي وضعها " ماسلو " في تفسير دوافع الانسان التي جعلها في تنظيم هرمي تبدأ من مستوى الحاجات " البيولوجية " إلى مستوى الحاجة إلى الأمن ، ثم الحاجة إلى الانتماء والحب ، فالحاجة إلى تقدير الذات إلى أن تصل الى تحقيق الذات .

ويرى أن هذا تصورا غريبا عن الطبيعة الانسانية ، فهذه حاجات ضرورية لاترفض ، ولكنها لاتمثل الدوافع الرئيسية لسلوك الانسان . إن حياة يحياها الانسان ، وكل همه اشباع حاجاته الخاصة " فسيولوجية " كانت أو نفسية من شأنه أن يفسد هذه الحياة ويؤثر تأثيرا سيئا على العلاقات الاجتماعية السائدة فيها ، وتصبح الغلبة في تلك الحياة لكل من يستطيع أن يخاتل ويخادع وينافق ويداهن كي يستغل كل مايمكن استغلاله لإشباع حاجاته . ويصبح الصراع هنا بين الانسان وغيره من بني الانسان فكل يحاذر من الآخر ، وكل يحاول الايقاع بالآخر ، وكل يتحين الفرصة كي يصل إلى مايريد ولو أدى إلى التضحية بغيره . وهذا بالقطع حياة مريضة ، ويصبح الإنسان فيها بمثابة ظل إنسان لايتبقى له من الانسان سوى شبح أو صورة باهتة .

وتأسيسا على ماسبق فان عبد السلام عبد الغفار يضع تصورا جديدا لتفسير طبيعة الإنسان ، غير متناس الدوافع الأخرى الأساسية التي تحدثت عنها نظريات علم النفس ، ويتضح التصور في الآتي :

١ - <u>ارادة الوجود</u> :

فالانسان دائم السعي لمعرفة معنى هذه الحياة ، ومعرفة مايدفعه اليها ، وإلى النضال معها ، وتحمل مايواجهه من مشقات ، والإنسان دائم السعي إلى تحديد هدف له في حياته ، وهذا الهدف يكون بمثابة رسالته في الحياة ، وهو مايحركه باستمرار ويدفعه إلى الحياة ، فحياته ليست مجرد حاجة أو رغبة تشبع فتكف عن الدفع ، وإنما

هي ارادة دائمة الدفع طالما يوجد الإنسان وهي ارادة الوجود .

٢ - ارادة العطا :

وهي قوة دافعة تدفع الفرد إلى العطاء وترغبه فيه ، والذى لايخفى من خلفه مطامع أو أهداف أخرى ، إنه العطاء المجرد وهو فعل اختيارى ينفرد به الإنسان ، أما الحيوان اما أن يأخذ أو يؤخذ منه .

ويتخذ العطا مظاهر كثيرة ومتعددة ، ويتراوح مابين صدقة خفية تعطيها دون أن تمن على من أعطيته ،إلى جهد عقلي يبذله العالم لعلمه دون انتظار لتقدير من الآخرين ، إلى جهد يقدمه العامل بأمانة في مصنعه دون الحصول على مقابل لما قدم ، إلى حياة يقدمها جندى في سبيل وطنه ، لأنه يجب أن يقدم لهذه الحياة معنى . وهكذا تتعدد الأمثلة ، وهي جميعا تشير إلى الجانب الايجابي في طبيعة الانسان ، ذلك الجانب الذى تغافلت أو غفلت عنه النظريات القائمة في علم النفس مما أدى الى اختزال أو تشويه فيما قدمته تلك النظريات من نماذج عن الإنسان .

٣ - القدرة على السمو :

تبدو قدرة الانسان على السمو في أروع مظاهرها في الجوانب الروحية عند الإنسان في إيمانه بالأديان ودفاعه عنها ؛ بل لقد بلغ سمو الانسان حدا أن استعذب العذاب في سبيل الدين وكلما ازداد العذاب وقست المواجهة ازداد عطاء الانسان في سبيل دينه وقيمه ، وأضاف ذلك روعة على حياة الانسان واشتدت دافعيته ، وهي تلك التي تمثل معنى لحياته .

وهذا يعني أن الجانب الروحي من طبيعة الانسان ، واغفال الحديث عنه في أية محاولة لفهم طبيعته ليس من الأمانة العلمية في شيء ." (عبد السلام عبد الغفار ، ١٩٧٣ ، ص ص ٣٨ ، ٥٧) .

والحل الأمثل للصراع بين الجانبين المادى والروحي في الانسان هو التوفيق بينهما ، ومثل هذا التوفيق يصبح أمرا ممكنا إذا ماالتزم الانسان في حياته التوسط والاعتدال ، وتجنب الاسراف والتطرف سواء في إشباع دوافعه المادية أو الروحية . والإسلام يحث على إشباع الدوافع الأولية بدون اسراف وفي حدود ماأمر الله بعيدا عن الإباحية التي تقود الى الفساد والضلال وفي الوقت ذاته إشباع الحاجات الروحية بدون غلو ولا رهبانية .والرسول الكريم يقول " **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني** ".(١)

وهكذا يتضح أن هناك علاقة وثيقة الصلة بين الدين والصحة النفسية ، لأن الدين مرتبط بفطرة الانسان التي تؤدى إلى التكامل والتوازن . فالدين يتضمن عبادات وقيم تقوى وتعمق قدرة الانسان على التحكم في دوافعه وغرائزه ، وبهذا يتم الحفاظ على الفرد وجماعته ، ويكفل له الاستقرار النفسي والمادى والاجتماعي .

" ولقد قرر الاسلام أن كل مولود يولد على الفطرة ، والانسان حر في اختياره "**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** "(٢) .وهو مسئول عن توافقه " **كل نفس بما كسبت رهينة** "(٣) . وقد حث الاسلام على التوافق الحسن مع الجماعة ، وبين للمسلم الطريق الى ذلك فأمره بالتعاون والتسامح والمودة وحسن الجوار والإصلاح بين الناس . قال تعالى " **انما المؤمنون أخوة** "(٤) وقال تعالى " **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ".(٥)

وقال الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا " وقال على ابن أبى طالب - كرم الله وجهه - " يابني لاتستخف برجل تراه

---

(١) رواه الترمذى ، ج ٤ ،ص ٥٥٠ .
(٢) الكهف : ٢٩
(٣) المدثر : ٣٨ .
(٤) الحجرات : ١٠ .
(٥) الفتح : ٢٩ .

أبدا فان كان أكبر منك فاحسب أنه والدك ، وان كان مثلك فاحسب أنه أخوك ، وان كان أصغر منك فاحسب انه ابنك ".

ونهى الاسلام النفس عن التوافق السيء فأمر الانسان باجتناب الحسد والتباغض وسوء الظن والخصومة يقول الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - " لاتباغضوا ولاتحاسدوا ولاتدابروا ولاتقاطعو وكونوا عباد الله اخوانا "(١). وقال : " ولايحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام "(٢). وقال " والذى نفس محمد بيده لايسلم عبد حتى يسلم الناس من قلبه ولسانه ويده ولايؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه "(٣).

وأمر الاسلام الفرد بالالتزام بالجماعة وبمعاييرها والخضوع لقواعد السلوك فيها قال تعالى " ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم "(٤) (كمال مرسي ، ١٩٨٨ ، ص ص ٩٢ ، ٩٣) .

أما رؤية الاسـلام إلى الصحة النفسية فتتركز على الكشف في " المبادئ والقوانين التي تنظم سلوك الإنسان في الحياة وفق مشيئة الله تعالى ومعرفة المنهج الأمثل لحياته وفق هذه السنن الإلهية مما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة ، ومعرفة أسباب انحراف الإنسان عن الحياة المثلى السوية ، مما يسبب له القلق والشقاء والمرض النفسي ، وسوف تجعلنا هذه المعرفة أقدر على فهم الانسان وأكثر فعاليـة فى ارشـاده وتوجيهـه وتعديـل سلوكه وتنظيم حياته ." (محمد عثمان نجاتي ، ١٩٩٠ ، ص ٢٦) .

وفي ضوء ذلك تتضح للإنسـان الرؤيـة في الحياة،فيشعر بالرضا عن نفسه ، وعن وجوده ومكانه في الكون ، لأنه على يقين أنه ليس ذرة ضائعة ، ولاشيئا مهملا ، بل هو قبس من نور الله ونفحة من روحه وخليفة في أرضه ، ومطمئن به ، وآمن في ظله . " الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون "(٥).

---

(١) رواه مسلم ، ج ٢٤ ، ص ١٩٨٣.
(٢) أخرجه مسلم ، ج ١ ، ص ص ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) البخارى ، ج ٨ ، ص ١٨ .
(٤) النساء ٥٩ .
(٥) الأنعام : ٨٢ .

فالايمان الصادق هو في ذاته شفاء للنفوس المريضة ، وبلسم للأرواح المتصدعة ، وإصلاح للبـال القلق مصداقا للآية الكريمة " والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ". (١)

والمؤمن الواثق من إيمانه يقف صلبا في وجه القيم الزائفة ؛ حيث يملك القيم الحقيقية المستمدة من منهج الله ، فلا تزلزله قيم زائفة من صنع البشر ، لاترفع ولاتخفض إلا في ظاهر الأمر ، ولايمكن أن تفرض نفسها على مشاعر المستعز بالله ، والمستعز بنفسه وقيمه ، لأنها لاتساوى شيئا فى ميزانه ولاتغير حقائق الأشياء وهو على هذا النحو لايصعر خده للناس ولايمشي في الأرض مرحا فذلك صغار وهو يستعلى عنه إنما يحترمه الناس ويقدرونه من تلقاء أنفسهم لأنهم يحسون أن بداخله حقيقة صلبة لاخواء ولانفخة كذابة ." (محمد قطب ، ١٩٨٧ ، ص ٢٢٦) .

كما إن الاسلام يحرص على ايجاد الشخصية السوية ، التي تشبع دوافعها سواء الدوافع " البيولوجية " أو الأساسية ، والدوافع النفسية دون أن تطغى واحدة على الأخرى قال تعالى " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا "(٢) . ولكنه يحذر في الوقت نفسه من الانغماس في شهوات الدنيا ، بحيث ينسى واجباته نحو خالقه بقوله " ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ". (٣)

ويقول تعالى " المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا ". (٤)

ويقول " ومالحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ". (٥)

وهكذا تتضح جليا الرؤية الإسلامية إلى الصحة النفسية والتي يمكن أن تتلخص في التالي :

---

(١) محمد : ٢ .
(٢) القصص : ٧٧ .
(٣) المنافقون : ٩ .
(٤) الكهف : ٤٦ .
(٥) الأنعام : ٣٢ .

١ - الجانب الروحي ويتمثل في :

الإيمان بالله وأداء العبادات والقبول بقضاء الله وقدره والإحساس الدائم بالقرب من الله ، وإشباع الحاجات بالحلال والمداومة على ذكر الله .

٢ - الجانب النفسي :

ويتجلى في الصدق مع النفس ، وسلامة الصدر من الحقد والحسد والكره . وقبول الذات ، والقدرة على تحمل الإحباط والقلق ، والابتعاد عما يؤذى النفس مثل الكبر والغرور والإسراف والتقتير والتشاؤم ، والاستمساك بالمبادىء المشروعة ، والاتزان الانفعالي وسعة الصدر والتلقائية ، والاقبال على الحياة ، والسيطرة على النفس والبساطة والطموح والاعتماد على النفس .

٣ - الجانب الاجتماعي :

ويتمثل في حب الوالدين ،وحب شريكة الحياة وحب الأولاد ومساعدة المحتاجين والأمانة والجرأة في قول الحق ، والابتعاد عما يؤذى الناس مثل : الكذب ، والغش ، والسرقة ، والزنا ، والقتل ، وشهادة الزور ، وأكل مال اليتيم ،والحقد ، والحسد ، والغيبة ، والنميمة ، والخيانة ، والظلم . ويتطلب من الانسان الصدق مع الآخرين ، وحب العمل ، وتحمل المسئولية .

٤ - الجانب " البيولوجي " :

ويتمثل في سلامة الجسم من الأمراض وسلامته من العيوب الخلقية وتكوين مفهوم موجب للجسم ، والعناية الصحية بالجسم وعدم تكليفه الا في حدود طاقته " . (محمد عثمان نجاتي ، ١٩٨٩ ، ص ص ٢٧٥ ، ٢٧٦) .

ويخلص الباحث مما سبق إلى التعريف التالي للصحة النفسية .

الصحة النفسية :

حالة نفسية وعقلية يشعر الإنسان فيها بالإيمان بالله الذى يجعله يشعر بالرضا التام ، والسعادة التي تكسبه توافقا سليما وصحيحا مع ربه ونفسه ومجتمعه وأمته ، وتجعله قادرا على أن يكون إيجابيا ومتفاعلا مع مشكلات مجتمعه ، ومنتميا له .

obeikandi.com